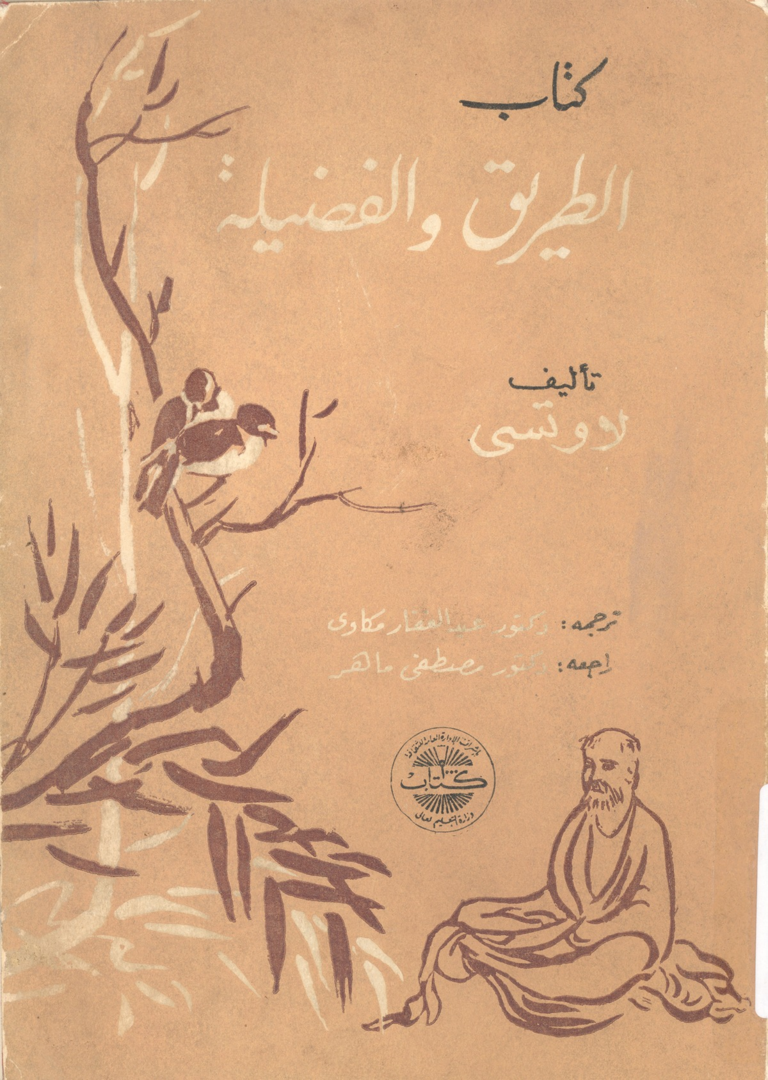

كتاب
الطريق والفضيلة
تأليف
لاوتسي
ترجمه: دكتور عبد الغفار مكاوي
راجعه: دكتور مصطفى ماهر
بإشراف الإدارة العامة للثقافة
كتاب
وزارة التعليم العالي

إهـــــــداء 2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

الألف كتاب (٦٤٣)

تاو - تي - كنج

كتاب الطريق والفضيلة

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٦٤٣)

تاو - تى - كنج

كتاب الطريق والفضيلة

تأليف: لاوتسى

ترجمة وتقديم
الدكتور عبد الغفار مكاوى

مراجعة
الدكتور مصطفى ماهر

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ ٥٢٣٠٩

١٩٦٧

هذه ترجمة كتاب :

TAO - TÊ - KING

(Das heilige Buch vom weg und von der Tugend.)

تأليف :

LAO - TSE

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
٦١ — البلد العظيم والبلد الصغير	١٥٥
٦٢ — كنز الطيبين	١٥٩
٦٣ — الصعب والسهل	١٦١
٦٤ — البدء والنهاية	١٦٣
٦٥ — التجانس العظيم	١٦٧
٦٦ — ملوك الوديان	١٦٩
٦٧ — الكنوز الثلاثة	١٧١
٦٨ — أشجع الفرسان	١٧٥
٦٩ —	١٧٧
٧٠ — هم لا يعرفوننى	١٧٩
٧١ — المرض العقلى	١٨١
٧٢ —	١٨٣
٧٣ — عن العقاب	١٨٥
٧٤ —	١٨٧
٧٥ — لماذا يجوع الشعب ؟	١٨٩
٧٦ — اللين والقوى	١٩١
٧٧ — شد القوس	١٩٣
٧٨ — لا شيء أرق من الماء	١٩٥
٧٩ — معاهدات السلام	١٩٧
٨٠ — بلد صغير	١٩٩
٨١ — طريق السماء	٢٠١
مصادر الكتاب	٢٠٣

تقديم

بلغ الحكيم السبعين من عمره فوهن جسده وسئمت نفسه، واشتاق إلى الراحة فعزم على أن يهجر البلاد إلى الغرب البعيد ، وجمع فى جرابه ما يحتاج إليه : الكتاب الذى تعود أن يقرأ فيه ، ومن الزاد القليل . وركب ثوره الأسود ، يصحبه تلميذه الصغير، وراح يشق طريقه فى بطن الجبل. وعندما بلغ مخفر الحدود تقدم حارس الجمرك الشاب فأوقف دابته السوداء وتطلع فى وجه الشيخ وسأل : هل من شىء يستحق الضريبة ؟ فأجاب : لا شىء. وقال الصبى: لقد كان يعلّم . وعاد حارس الجمرك يسأل : وماذا كان يعلم ؟ فقال الصبى : إن الوداعة تغلب الشدة ، وإن الماء يفتت الصخر . فسأل الشاب من جديد والدهشة تطل من عينيه : وما حكاية هذا الماء ؟ إن كنت تعرف فتكلم ، اكتبه لى ، أمله على هذا الصبى ، مل بدابتك وتلميذك إلى كوخى ، عندنا الورق والمداد ، ونستطيع أيضاً أن نقدم لك وجبة العشاء . قال الشيخ فى نفسه : إن من يسأل يستحق أن يجاب . ونزل من فوق ثوره الأسود ، ودخل إلى الكوخ وراح يملى على صبيه سبعة أيام متتالية . وفى اليوم السابع سلم الصبى حارس الجمرك — فيما تقول الأسطورة التى يرويها المؤرخ شى جى فى المائة الأولى قبل الميلاد — إحدى وثمانين قصيدة ، فى أكثر من خمسة آلاف

كلمة ، خرجت من فم العارف الذى لايحب الـكلام .. وكان منها هذا الكتاب الصغير العجيب « تاو تى كنج» ، كتاب الطريق والفضيلة ، الذى ألفه الحكيم لاو تسى وهو فى طريقه إلى المهجر ، بعد أن بلغ السبعين من عمره ، وضعف جسده وسئمت نفسه .

ويسأل القارئ : ومن هو لاو تسى هذا ؟ فتحضرنا الإجابة السريعة : إننا لا نعرف عنه شيئا أو لا نكاد نعرف عنه شيئا ! لقد كان ، وسيبقى دائما بالنسبة لنا مجهولاً ، مثله فى ذلك مثل الطريق الذى يحدثنا عنه. لا أحد يدرى إن كان « لاو تسى » هذا ، وهى كلمة معناها المعلم الشيخ ، قد عاش حقيقة أو إن كان شخصية أسطورية . لا يدرى أحد إن كان هو الذى ألف الكتاب أو إن كان هو الذى جمعه ورتب أبوابه . ولا يدرى أحد كذلك إن كان « لاو تسى » هو اسم الرجل أو اسم الكتاب الذى نسب اليه . ومع ذلك فيمكننا أن نقول مع بعض المؤرخين إنه ولد فى عام ٥٧١ قبل الميلاد [1]، وإنه كان معاصرا للمعلم الأشهر كونفو شيوس ـ ولعله كان يكبره بعشرين عاما ـ وإنه نشأ فى أسرة عريقة، واشتغل أمينا لوثائق القصر فى العاصمة ؛ وإنه ودع بلاده وهو ما يزال فى منتصف العمر، وهاجر إلى الغرب البعيد حيث عاش فى عزلة عن الناس حتى بلغ التسعين أو يزيد ، وترك وراءه عدداً وفيراً من الأبناء والأحفاد ، كان أحدهم موظفا .

أما الكتاب المقدس عن الطريق والفضيلة — تلك هى الترجمة الحرفية

---

(١) أو حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد أو بعد ذلك بقليل كما انتهت إلى ذلك الأبحاث الحديثة فى رأى ديبون .

لتاو تى كنج ـ وهو الذى تحدى قدرة المترجمين والمفسرين فى الشرق والغرب على مدى مئات السنين ، فلم يثبت وجوده إلا فى القرن السادس بعد المسيح . مؤلف مجهول الاسم كالطريق الذى يبشر به ، ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نجهل شخصيته الحائرة التى تطالعنا من بين السطور فيما يشبه الاعتراف الذاتى حين يقول فى المقطوعة العشرين :

الناس جميعهم فرحون

كأنهم يشاركون فى وليمة التضحية

كأنهم ذاهبون إلى مهرجان الربيع

أنا وحدى أرقد فى سكون

أشبه بطفل صغير

لم يبتسم مرة واحدة فى حياته .

أنا وحدى متعب ، حزين القلب ؛

مضيع ، وكأنى بغير هدف

أنا وحدى غير الآخرين .

أو شخصيته الآمرة الواثقة التى تقابلنا فى المقطوعة ٦٧ :

رحيم — من أجل هذا وحده أستطيع أن أكون شجاعاً ؛

معتدل — من أجل هذا وحده أستطيع أن أكون كريما ؛

أو التى تفاجئنا وتبهرنا فى المقطوعة ٧٠ :

النادرون هم الذين يفهموننى ؛

والذين يتبعوننى ، هم المرموقون .

ولـكن هل نحن فى حاجة إلى الاستشهاد بكلماته وقد كان لها كل هـذا الأثر فى خلق ديانة لها الآن أتباعها وكهنتها ومعابدها وطقوسها ؟ !

ومع ذلك فهذه الديانة أو هـذا المذهب الذى يعد لاوتسى مؤسسه الأول يحيط به الظلام والغموض من كل ناحية . فالتصور الأساسى فيه ، وهو «التاو» (الطريق) قد ورد فى مواضع كثيرة من حكم كونفوشيوس بمعنى طريق الملوك الأقدمين ، أو طريق السلوك الصحيح فى الحياة . وهو يرد فى التاوية القديمة بمعنى الطريق إلى الحياة الأبدية ، كما يشهد بذلك البيت الأخير من القصيدة التاسعة والخمسين حيث يقول :

هذا هو طريق الحياة الأبدية

طريق الرؤيا الدائمة .

ثم اتسع مدلول الـكلمة فكانت تطلق على طريق العالم ، أو الطبيعة، وعلى مبدأ كل حياة ووجود ، حتى أصبحت تدل أخيرا على تلك الحقيقة التى لا تحيط بها الأسماء والصفات ، وإن اضطرت الإنسان إلى تسميتها بالطريق حتى يستطيع أن يتحدث عنها .

أما عن كلمة « تى » التى ترد بعد « التاو » فى اسم هذا الـكتاب المقدس

فقد مرت كذلك بمراحل عديدة . كانت فى البداية تدل على القوة السحرية التى يوصف بها من يقوم بالشعائر والطقوس على الوجه الصحيح، ثم أطلقت بعد ذلك على كل من يسلك السلوك الأخلاقى الطيب . وهى فى الحقيقة تلتقى مع كلمة Virtus اللاتينية التى تترجم عادة بالفضيلة ، وإن كانت تعنى كذلك القوة والطاقة والإرادة الكامنة فى أعماق الإنسان .

والهدف من التصوف التاوى هو العودة بالإنسان إلى الطبيعة الأصيلة، إلى بساطتها وبراءتها وصفائها الأول، والرجوع بذلك إلى الحياة الأبدية الباقية . وتتمثل هذه البساطة الأولى فى الطفل، كما تتمثل فى اللانهائى واللامحدود ، وفى كتلة الخشب الخام الذى لم تمسسه يد بشر ، ولم تحاول معالجته بالتشكيل والتصنيع . ولكن هناك عقبات كثيرة تحول بين الإنسان وبين السير على طريق الأبد والبقاء : هناك الأنانية ، والسعى الدائب إلى الكسب والشهرة والنجاح ، وهناك الحضارة والفن وقوانين الحكم والتعلم ، بالمعنى الذى يجعل الإنسان يستزيد من المعلومات « عن العالم » بدلا من معرفة « العالم » نفسه ، ويطلب الدرس والتحصيل فيفقد الحب والحكمة . وطريق الحكيم إلى السعادة يتلخص فى كلمة واحدة هى « و و — و ى » أى التخلى عن الفعل وعدم العمل عن طريق الحد من البذور والكلمات والأفعال . وليس المقصود بذلك هو الكسل أو التواكل والجمود ، بل هو عدم « التدخل » فى مجرى الطبيعة ، والإعراض عن كل فعل من شأنه أن يثير شهوة النجاح والتملك والسيطرة ، ويولد بدوره من الأفعال ما يزيد من حدة التنافس بين الناس، ويدفعهم إلى تسلق سلم الطموح والشهرة والتحكم الذى لا آخر له . فالحكيم كما تقول إحدى القصائد ، لا يشتهى شيئاً ، اللهم إلا أن لا يشتهى . إنه يسير على طريق تخالف

طريق الفكر الغربى الذى يطبع العالم اليوم بطابعه ، وينشر سلطانه المفزع حتى على البلد الذى نشأ فيه الحكيم نفسه . ذلك أن مفكر الغرب — منذ ألقى الفيلسوف اليونانى الأول سؤاله المشهور : ما هو الموجود ؟ مارا ببيكون وديكارت فى أوائل العصر الحديث حتى أيامنا هذه — قد انساق بإرادته أو بغير إرادته وراء السيطرة على العالم ، والتحكم فيه بالعقل واليد والآلة ، بينما حاول الحكيم الشرقى دائماً أن يحب العالم ويعانقه ويندمج فيه .

ونخطىء خطأ كبيراً إن ظننا أن الحكيم الصينى قد نادى بالتخلى عن العالم أو إهمال الجسد . ذلك أن السعادة التى ينشدها روحية بقدر ما هى جسدية . بل إنه لا يفرق بين جسد وروح كما يفرق بين دنيا وآخرة ، بين وجود أرضى ووجود آخر وراءه كما فرقت بينهما الفلسفة الإغريقية مثلاً . من أدل الأشياء على ذلك — فيما يقول المتخصصون فى اللغة الصينية — أن كلمة شن تدل على الجسد كما تدل على الروح فى آن واحد ، كما تشير إلى ذلك القصيدة الثالثة عشرة . فالحياة الأبدية إذن استمرار للحياة الجسدية . والمحافظة على الحياة الجسدية تكاد تكون فكرة أساسية فى هذا الكتاب ، إن لم تكن هى لبه وجوهره . وإذا كان الازدهار يتبعه الذبول ، فإن الحكيم يريد للإنسان أن يعيش فى ربيع دائم ، وأن يقف بكل طاقته فى طريق العجز والشيخوخة . ولكن قانون الطبيعة يقول إن الازدهار يتبعه الذبول ، وإن الحياة تنتهى بالموت . ولذلك فإن الحكيم التاوى يرى أن كل أمل للإنسان فى الخلود ينتهى حين يبلغ السبعين من عمره . فعلى الإنسان إذن أن يبقى بغير عمل ، ولن يجد شيئاً لم يعمل .. أن يلزم السكينة والهدوء ، وسوف تنحل كل العقد من تلقاء نفسها .. أن يجرد ذاته من شهوة الكسب والنجاح ، فيصل إلى

الكسب والنجاح الحقيقيين بالاتحاد مع « التاو » ، طريق السماء . هذا المذهب في السلوك والحياة يكون أبعد ما يكون أثراً على حياة الرعية حين يأخذ به الراعي نفسه . ولذلك نجد الحكيم يوجه حديثه إلى الحاكم بوجه خاص، ويهتم بنجاته وتحكمه في نفسه أشد الاهتمام . وهذه العناية بالحاكم أو الملك مستمدة من طبيعة النظرة الصينية نفسها منذ القدم . فهي لم تفصل أبداً بين الكون الصغير والكون الكبير ، ولم تذكر الأرض والسماء إلا ذكرت معهما الملك والحاكم ، ولم تتحدث عن الفضيلة الصوفية إلا وتحدثت عن فضيلة الحكم وإدارة شئون الدولة . وشخصية الحكيم نفسه مزيج من الزاهد العاكف على التأمل والحاكم المدبر لشئون الرعية . فإذا قال عن الحكيم أو القديس (في القصيدة الثانية عشرة) إنه « يعمل من أجل البطن لا من أجل العين » فهو يحدد بذلك قاعدة السلوك الصحيح للفرد ، كما يحدد قاعدة الحكم للحاكم . إنه ينصحه بأن يهتم بإشباع الشعب لا « بتفتيح عينيه » أو إيقاظ شهواته ؛ وبذلك تتداخل خيوط الصوفية والحكمة العملية والسياسية في نسيج واحد .

ولكي نفهم هذا الكتاب حق الفهم ينبغي أن نعرف البيئة والظروف التي نشأ فيها . لقد كانت السكينة والهدوء وعدم الفعل محاولة من مؤلفه المجهول لفض المنازعات الدامية التي سادت في عصره . فقد ظلت الإمارات والدويلات الصينية منذ القرن الخامس قبل الميلاد تتصارع على السيادة وتشتبك في حروب ومؤامرات لا آخر لها . كان الاستيلاء على الدولة أو المملكة هو مشكلة الساعة كما نقول اليوم (راجع القصائد ٢٩ ، ٣١ ، ٤٨) . وراح الفلاسفة والحكماء يرحلون من إمارة إلى إمارة ليدلوا أصحابها على أفضل طريق إلى السيادة على العالم (فقد كانت المملكة ومملكة الأرض بالنسبة للصيني شيئاً واحداً) .

اقترحوا عليهم أن يتحدوا مع دولة تسين Tsin التى كانت تنمو وتتضخم على نحو ينذر بالخطر أو يتحدوا ضدها ، ولكن فكرتهم عن إقامة دولة القانون والبوليس ، وهى التى عرفت فيما بعد بالنظرية القانونية ، وجدت الترحيب والقبول فى نفوس الأمراء . ونشأت نظرية الحكم القانونى فى مملكة تسى الغنية فى شمالى شرقى الصين ، ثم تطورات إلى أقصى حد فى مملكة تسين Tsin فى الغرب ، حتى تمكنت من هزيمة منافسيها جميعاً فى عام ٢٢١ ق . م وأسست تلك الدولة الموحدة التى نسميها اليوم بالصين . ولكن هذه الدولة التى قامت على الحكم المتجبر والتسليح الشامل ، وأدمت ظهور الشعب بالسخرة المهينة والتدريب المتصل على الحرب ما لبثت أن انهارت بعد خمسة عشر عاماً من الطغيان والجبروت . ورأى لاوتسى أن الموت فى ظل دولة كهذه أعذب من الحياة . ولم يملك فى وجه نظام يمجد الحرب ويؤله السلاح إلا أن يكتب حكمه التى تدعو إلى السلام فى حرارة وصدق لا يخلوان من الغضب المقدس ، وأن يصف الأسلحة والجيوش بأنها من بين الشرور أعظمها شراً ، ومن ثم وجدناه يقول فى المقطوعة الثلاثين :

حيث تكون الجيوش ، تنمو الأشواك والأحراش ،
وبعد المعركة العظيمة
تأتى السنون العجاف

كما يقول فى المقطوعة الواحدة والثلاثين :

لأن الأسلحة أدوات الشر
ولأن الكائنات تكرهها

فإن من يملك الطريق
لايسكن قريباً منها .

أو فى المقطوعة التاسعة والستين :

حقاً : عندما يشرع اثنان السلاح أحدهما فى وجه الآخر،
فإن من يندب حظه منهما هو المنتصر .

ورأيناه يقف فى وجه الحكم الدكتاتورى الشمولى — كما نعبر اليوم — ويرفض رقابة الدولة على وجدان الشعب وسلوكه . فهو يقول فى بداية المقطوعة الثامنة والخمسين ناعياً على الحاكم كل نشاط يمكن أن يؤدى إلى النزاع وكل فاعلية فاسدة قد ينجم عنها التطاحن والصراع :

عندما يكون الحاكم كسولا وضيق الحيلة ،
يكون الشعب سعيداً وقرير العين ؛
عندما يكون الحاكم نشيطاً وحازماً ،
يكون الشعب بائساً وساخطاً .

ويقول فى مطلع القصيدة الستين :

احكم البلد العظيم
كما لو كنت تقلى الأسماك الصغيرة .

أو يقول فى القصيدة الرابعة والسبعين :

إذا كان الشعب لا يخاف من الموت

فلماذا إذن نبث فيه الرعب من الموت ؟

وفى وقت يرى الحكيم فيه شعبه تهدر إنسانيته وتقتل الحرب والسخرة كرامته، كان لا بد له وهو الذى يعيش فى آلام الناس أن يقول بيته المشهور فى الفصل الثمانين:

اجعل الشعب يأخذ الموت مأخذا جاداً .

وانهارت دولة تسين كما قلنا بعد حكم متجبر لم يزد على خمسة عشر عاماً ، وتبعتها دولة « هان » التى قامت بعدد كبير من الإصلاحات الإدارية والتشريعية ، ومن أهمها تأسيس دولة الموظفين على أنقاض دولة الإقطاع . وفى عام ١٣٦ ق . م أعلنت الكونفوشية مذهباً رسمياً للدولة ،وظلت كذلك حتى عام ١٩١١ بعد الميلاد .

ويرجع الفضل فى نشر هذه الفلسفة إلى كونج كيو ، أو كونج فو — تسى الذى اشتهر باسم « المعلم كونج » وقد عاش وحكم حوالى عام ٥٠٠ ق . م . فقد قضى حياته فى تربية شباب النبلاء فى بلاد « لو » وأصبحت القواعد التى قامت عليها هذه التربية أساساً لما سمى فيما بعد بالمذهب الكونفوشى . وقد لعبت الكرامة الإنسانية أو الصداقة للإنسان (ين) دوراً أساسياً فى هذه التربية ، كما كان الهدف منها هو الابن المطيع والرعية الوفية ، ومثلها الأعلى الذى وضعته أمام الأمراء هم القديسون والحكماء من الملوك العظام والقياصرة الإلهيين فى العصور القديمة .

وجاء مونج — تسى ، الذى يسميه الغربيون منسيوس (من عام ٣٧٢

إلى عام ٢٨٩) فكافح فى سبيل تدعيم الكونفوشية ، وأضاف إلى الـ « ين » فضيلة جديدة هى العدل ، وأكملهما بالذكاء ، والأخلاق الطيبة ، والموسيقى ، وأصبح الخير مع الزمن نتيجة للتربية والتعليم . وعندما وضع لاوتسى كتابه كانت الإنسانية (ين) وسائر الفضائل قد أصبحت مجرد شعارات وشعائر أدت بطبيعتها إلى الكذب والنفاق الاجتماعى . ولذلك لم يكن عجيباً أن يتطرف لاوتسى فى الهجوم عليها إلى الحد الذى يرفض معه الإنسانية نفسها بعد أن أصبحت مرادفة لآداب اللياقة وشعائر الذوق والاحترام، وأن يتطرف كذلك فى رفضه « للتعليم » الذى لا تكاد توجد حكمة من حكم كونفوشيوس التى جمعها تلاميذه فى المجموعة المعروفة باسم « لون يى » إلا وتبدأ بها.فالتعليم فى رأيه خطرعلى البراءة الطبيعية والسعادة الصوفية .والحاكم الذى يدبر شئون الرعية بالفطنة والمهارة والشطارة يزيد الرعية تعاسة وشقاء.والعصر الذهبى الذى عاش فيه الحكماء الأقدمون لم يكن يعرف شيئاً عن الكتابة والتدوين : (المقطوعة الثمانون)

اجعل الناس كذلك يرجعون
إلى الحبل المعقود ويستعملونه .

ولا كان يهتم بالدرس والتحصيل — (المقطوعة العشرون) :

اطرح التعلم وسوف تنتهى همومك !

أو كما يقول فى المقطوعة الثامنة والأربعين :

ابق بغير عمل
ولن تجد شيئاً لم يعمل

أو كما يعبر فى القصيدة الخامسة والستين :

القدماء الذين عرفوا كيف يهتدون بالطريق

لم يكن هدفهم تنوير الشعب

بل إبقاءه جاهلا .

فكلما زاد حظه من العلم

كان عسيراً على الحكم . .

ولعل من السخرية أن الذى ينصح الناس بعدم الفعل وعدم الكلام قد اضطر إلى تدوين أسرار حكمته فى خمسة آلاف كلمة !

* * *

قلنا إن كتاب تاو ـــ تى ـــ كنج مزيج من التصوف والحكمة العملية والنظرية السياسية . ولم يكن بد من أن يعرضه ذلك لمختلف التفسيرات والتأويلات على مر العصور . فقد تفرعت التاوية فى القرون الأولى بعد الميلاد إلى فرعين : مذهب فى الكون والحياة يؤمن به مجموعة من المثقفين المنعزلين عن العالم ، وعقيدة سحرية شعبية استجابت لها جموع الفلاحين . واشتبكت التاوية فى صراع حاد مع البوذية ، وسرعان ما ارتفع لاوتسى إلى صفوف الآلهة ، وأصبحت التاوية ديناً له معابده وأسراره وكهنته وطقوسه كما أصبحت وسيلة لممارسة فنون السحر والدجل والشعوذة .

أما تأثيرها السياسى فمن الصعب تقديره . فيروى أن الحكم السعيد الذى اشتهر به أحد قياصرة دولة هان (وهو ون ـــ دى الذى حكم من عام ١٧٩ إلى

عام ١٥٧ قبل الميلاد) يرجع قبل كل شيء إلى تأثير الفلسفة التاوية عليه . كما يروى أن أمه كانت تحب كلمات لاوتسى ولم تكن تميل إلى فنون الكونفوشيين . وقد استطاع ابنها بالتواضع والتسامح والهدوء أن يقلم أظفار الطموح فى قواده ومستشاريه وأن يقف فى وجه أعدائه الشماليين من الهون — خان وينشر السعادة والرخاء فى بلاده . كما أن انتشار فكرة عدم العمل فى عهد ازدهار التاوية الجديدة فى القرنين الثالث والرابع بعد المسيح (وبخاصة على يد مستشار الدولة وانج يان) هو المسئول إلى حد كبير عن العام الأسود ٣١١ الذى مرت به دولة الصين ، إذ وقعت فى أيدى قبائل الهون وانشقت على نفسها قرونا عديدة . ومع ذلك فقد يمكن القول بأن الفهم الصحيح لفكرة الامتناع عن العمل ، وهو عدم الإفراط أو تجاوز الحد ، هو الذى كفل لدولة الوسط (الصين) أن تتصل حضارتها وتاريخها من العصور القديمة إلى اليوم .

لم يعد هناك شك فى أن التاوية كانت انقلابا عظيما على الدين التقليدى فى الصين وحماسا شديداً فى سبيل المطلق ، كما كانت رد فعل قوى ضد الطقوس القديمة وحربا على النفاق الاجتماعى ومراسم اللياقة والسلوك . فالتاويون متصوفون يندمجون فى الطبيعة ، ويمقتون النفاق ، ويرفعون من شأن الإلهام والروح الشعرية الغنائية أمام سيادة العقل والتعاليم الأخلاقية الشكلية عند الكونفوشيين ؛ كما يقدمون الحكمة على المعرفة ، وينصرون الفرد فى وجه الجماعة ، ويفسحون المجال لخلجات النفس وأشواق الروح وشرارة الخيال تجاه ما قرره الكونفوشيون من واجبات الإنسان ومسئولياته أمام الأسرة والنظام

الاجتماعى . وإذا كان الحكيم التاوى يريد أن يحرر نفسه من كل رغبة فى الامتلاك ، فلا شك فى أنه لم يكن يسعى إلى شىء كسعيه إلى امتلاك المطلق ، الواحد ، الأول ، البسيط ، والرجوع إلى « التاو » ، مبدأ كل حياة وسر كل وجود .

إن القارئ الذى يتعمق فى قراءة هذا الكتاب ، لا بد سيحس بضرورته فى عصر التسابق والصراع الذى لا يعرف حدا للطمع والقلق والطموح . وسوف يبتسم بالطبع فى نهاية الأمر حين يطالب منه الحكيم الطيب أن يمتنع عن العمل لكى يصل إلى الطريق . إذ كيف يفهم ما يريده الحكيم بالعمل ؟ وإذا امتنع عن العمل فكيف يستطيع أن يبرر حياته فى زمن لا يقدس شيئاً كما يقدس العمل ؟

الحق أنه لو كان التوقف عن النشاط والعمل مرادفا للكسل والاستكانة ما استحق منا هذا الكتاب أن نخط فيه حرفا واحدا . ولكن المؤلف الذى يعلمنا التواضع والاتضاع فى زمن يمجد النجاح والطموح مهما تكن نتيجتهما ، ويعيدنا إلى منبع السكينة فى زمن يعصف به القلق ، ويحذرنا من تجاوز الحد فى وقت يتباهى فيه الإنسان بقوته ويكاد ينسى أن الإنسان ليس إلها ، ويغنى للوداعة والمحبة والسلام حيث يزداد ضجيج السلاح فى كل مكان ، مثل هذا المؤلف جدير بإنسان العصر، ولا شك ، أن يتوقف لحظة ليستمع إليه ويسأل نفسه إن كان الحق معـــه . سيجد فى كلماته أصداء من حكمة اليونان —وهل علمنا اليونان درسا أغلى من الاعتدال ومعرفة الحد ؟ — ومن موعظة

الجبل وخطبة الوداع . وسيتذكر معه موكب الصابرين والمتواضعين من أقدم العصور إلى تولستوى فى العصر الحديث . وإذا أفلحت هذه الحكمة فى أن تنتزع منه الابتسام ، فلا شك أنها ستحمل مع الابتسام كثيراً من الصبر والأمل والعزاء .

عبد الغفار مكاوى

ملحوظة

لما كنت لا أعرف للأسف حرفاً واحداً من اللغة الصينية فقد اعتمدت فى هذه الترجمة على ثلاث ترجمات هى كل ما استطعت أن أصل إليه ، أوضحت لى مدى الاختلاف حول تفسير النص الذى لا شك فى أنه يبلغ فى لغته الأصلية حداً كبيراً من الغموض والتعقيد . وسيجد القارئ نص القصائد فى أعلى الصفحة ، أثبته بعد المقارنة والاحتكام إلى آراء الشراح وتغليب ما اطمأن إليه إحساسى ورجحت قربه من وجدان المؤلف وحكمته وشاعريته. وسيجد القارئ فى الهوامش القراءات المختلفة فى الترجمات ، نصصت عليها فى بعضها ، وتجنبت أن أثقل عليه بها فى البعض الآخر. وسيجد كذلك شرحاً لبعض المواضع الغامضة اعتمدت فيه على الثقات من المترجمين والمفسرين ، وبالأخص المترجم الألمانى « جونتر ديبون » والمترجم الإنجليزى «آرثروالى»: أما الكاتب الصينى « لين يوتانج » الذى نشر الكتاب وأضاف إليه كثيراً من التعليقات وزخرفه بكثير من الطرائف والحكايات التى استمدها من كتابات الحكيم تشوانج تسى — ألمع تلامذة لاوتسى وأشدهم نبوغاً وشاعرية — فقد التزمت منه موقف الحذر ؛ بعد أن نبه بعض الباحثين إلى ما بين الحكيمين من فروق جوهرية ، وإن كنت قد استفدت كثيراً من ترجمته الجميلة المبسطة .

وللقارئ أن يطمئن إلى القراءة التى يرضاها ذوقه ، حتّى يقيض الله لنا — فى وقت قريب أو بعيد — من أبناء وطننا من ينقل هذا الكتاب، الذى لم يوصف عبثاً بالقداسة ، عن لغته الأصلية مباشرة . ومن يدرى ؟ فقد لا يطول بنا الانتظار !

الكِتابُ الأوّلُ

— ١ —

الطريق

لو كان فى استطاعتنا أن ندل على الطريق
ما كان هو الطريق الأبدى .
لو كان فى استطاعتنا أن نسمى الاسم
لما كان هو الاسم الأبدى .

الذى بغير اسم
هو مبدأ السماء والأرض ؛
والذى له اسم
هو أم الجواهر العشرة آلاف [1] .

حقاً :
من كان إلى الأبد بغير شهوة [2]

(١) يترجم دويفنداك هذه المقطوعة كما يلى: كلمة عدم الوجود تدل على مبدأ السماء والأرض، كلمة الوجود تدل على أم الجواهر العشرة آلاف . وبذلك تكون «هذان الاثنان» الواردة فى نهاية المقطوعة إشارة إلى الوجود وعدم الوجود .

(٢) أو كما فى ترجمة آرثر والى الإنجليزية : من يتخلص إلى الأبد من الشهوة .

فسوف يرى سر الأسرار ؛

من كان إلى الأبد محكوماً بالشهوات [1]

فلن يرى إلا طرف ثوبه[2] .

هذان الاثنان شيء واحد

خرجا إلى الوجود فاختلفت أسماؤهما ؛

التوحيد بينهما نصفه بأنه صوفيّ ،

صوفيّ ، ومرة أخرى صوفيّ .

هو الباب الذى يؤدى إلى سر كل حياة[3]

---

(١) من لم يتخلص أبداً من الشهوة .

(٢) فلن يرى إلا مظاهره .

(٣) كذلك فى ترجمة ديبون الألمانية ، أما الترجمة الإنجليزية فتقول :

هذان الاثنان خرجا من طينة واحدة

ومع ذلك فاسماهما مختلفان

المنبع الواحد نستطيع أن ندعوه بالسر

أو خيراً من ذلك بما هو أشد إظلاماً من السر .

إنه الباب الذى خرجت منه كل الأسرار .

— ٢ —

نشأة الأضداد

منذ أن عرف كل إنسان على الأرض(١)

جمال الجميل

وجد القبح ؛

منذ أن عرف كل إنسان على الأرض

أن الخير خير

وجد الشر .

حقاً :

الوجود وعدم الوجود ينبع أحدهما من الآخر ؛

---

(١) فى الترجمة الإنجليزية :

لأن كل إنسان تحت السماء
يعرف الجمال بما هو جمال
وجدت فكرة القبح ؛
كذلك لو تعرف كل إنسان
على الفضيلة بما هى فضيلة
لنشأت الأفكار عن الشر .

الثقيل والخفيف كلاهما شرط للآخر .

الطويل والقصير كلاهما مقياس لصاحبه .

العالى والواطى يحدد أحدهما الآخر .

الصوت (البشرى) يلتئم مع النغم فى الجوقة .

واللاحق يتبع السابق .

لذلك فإن الحكيم

ينبغى أن يعمل بغير عمل

وأن يعلم من غير كلام [1]

الجواهر العشرة آلاف خلقت منه

غير أنه لا يتخلى [2] عنها .

هو ينتج ، ولكنه لا يمتلك ؛

ويعمل ، ولكنه لا يعول على عمله .

وإذا ما أتم عمله ، لم يتلبث عنده [3] .

---

(١) وأن يعلم بغير كلام .

(٢) لا يتنكر لها .

(٣) يحقق هدفه ، ولكنه لا يجذب الأنظار إليه .

ونموذج هذا الحكيم التاوى الذى يختفى بعد أن يحقق الانتصار هو فان لى (القرن الخامس قبل الميلاد). فقد وعدوه أن يقدموا له نصف المملكة هدية له لو عاد منتصراً ومعه جيوش «يوويه» الظافرة ، ولكنه ركب مركباً خفيفا ولم يسمع به أحد بعد ذلك . =

ولأنه لا يتلبث عنده ،

فليس هناك شيء

يمكن أن يفلت منه .

= فالحكيم يتجنب كل عمل مما نصفه عادة بالعمل الإيجابى،لأنه لا يعمل إلا من خلال الطريق أو بقوته ، التى تعلو فوق كل الأضداد وتملك أن تقطع دون أن تجرح .

- ٣ -

العمل بغير عمل

من لا يكرم الدءوبين

يجعل الشعب لا يتنازع [1] .

من لا يقدر الخيرات التى يتعذر الوصول إليها ،

يجعل الشعب لا يتحول إلى لصوص .

من لا يعرض على الناس ما يثير فيهم الشهوة

يجعلهم لا يتحولون إلى عصاة [2] .

لذلك كان حكم الحكيم :

إنه يفرغ عقولهم

ويملأ بطونهم ،

---

(١) لو توقفنا عن البحث عن أشخاص ذوى أخلاق عالية لنضعهم فى مكان السلطة ، لاختفت الأحقاد بين الناس . ويلاحظ أن كلمة الدءوبين قد استعملت فى مختلف المدارس الفلسفية فى القرون الأولى قبل المسيح بدلا من كلمة النبلاء .

(٢) يجعلهم يحافظون على الهدوء ولا يضربون .

يضعف إرادتهم [1]

ويقوى عظامهم .

إنه يترك الشعب أبداً

بلا علم ولا شهوة .

ويجعل الأذكياء

لا يتجاسرون على الفعل .

وإذا فعل عدم — الفعل[2]

لم يبق شيء يستعصى على الحكم .

---

(١) عقولهم .

(٢) وبفاعليته المجردة عن الفعل ينتظم كل شيء .

– ٤ –

جوهر الطريق

الطريق خال من من المكان [١] ،

بحيث إن الاستعمال لا يملؤه [٢] .

آه ! عميق هو وبلا قرار

شبيه بجد الكائنات العشرة آلاف [٣]

إنه يثلم حده ،

يحل عقده ،

يلطف لمعانه

ويمسح ترابه [٤] .

عميق هو وبلا قرار ، آه ،

حاضر إلى الأبد .

---

(١) وعاء أجوف — أو ؟

(٢) يصب منه دون أن يفرغ .

(٣) أو الجواهر العشرة آلاف ، أى جميع ما على الأرض وتحت السماء من كائنات .

(٤) التراب عند الحكيم التاوى رمز لكل ما تضطرب به الحياة اليومية من ضجيج .

أنا لا أدرى ، ابن من هو —

هو صورة من كان [1]

قبل أن تكون الآلهة [2] .

(١) هو صورة بلا قوام أو شكل بلا مادة (كالصور العقلية التى تتراءى أمام أذهاننا عندما نفكر) .

(٢) قبل أن يكون الجد ، ولعل المقصود هو الجد الأصغر الذى فصل السماء عن الأرض ودمر بذلك الوحدة الأولى .

— ٥ —

الأرض والسماء

السماء والأرض غير ودودتين مع الناس ؛
إنهما يعاملان الكائنات العشرة آلاف كما لو كانت كلاباً من القش[١] .
الحكيم غير ودود مع الناس ؛
إنه يعامل الأجناس العشرة آلاف[٢] كما لو كانت كلابا من القش .
السماء والأرض ،
ما أشبه الفضاء الممتد بينهما بالمنفاخ !
إنه فارغ ، وإن كان الهواء لا ينقطع منه .
كلما تحرك ، ازداد عطاؤه .
بالكلمات الكثيرة يجهد الروح .
خير ما يفعله الانسان ، أن يحتفظ بها فى صدره[٣] .

---

(١) الكائنات أو الجواهر العشرة آلاف رمز لكل ما على الأرض وتحت السماء من كائنات، أما الكلاب المحشوة بالقش فقد كانت تستخدم عند تقديم الأضاحى والقرابين ثم يلقى بها بعيداً .

(٢) الناس أو الشعب .

(٣) كلمات كثيرة ، تصحبها خسارة ،
خير للانسان أن يتمسك بالباطن .

- ٦ -

روح الوادى

خالدة هى روح [1] الوادى ،

هكذا تسمى الأنوثة الحافلة بالأسرار .

بوابة الأنوثة الحافلة بالأسرار :

هى جذر السماء والأرض .

ثابتة فى ضمائرنا

كأنها ستدوم أبدا ؛

اغترف منها كما تشاء

ولن تجف أبداً [2] .

(١) جنية الوادى . وفى إحدى الترجمات : الوادى والروح خالدان .

(٢) وسوف تخدمك بغير مشقة .

– ٧ –

الحياة من أجل الآخرين

السماء تبقى أبدا ، والأرض تدوم

ولكن ما الذى يمنح السماء والأرض القدرة

على البقاء والدوام ؟

لأنهما لا يتلقيان الحياة من نفسيهما

من أجل هذا يستطيعان أن يعيشا إلى الأبد .

لذلك فان الحكيم :

يؤخر نفسه

فتصبح فى المقدمة ؛ [1]

يطرد ذاته

---

(١) يضع نفسه فى المؤخرة
ولكنه يظل دائما فى المقدمة
يبقى فى الخارج
ولكنه يظل حاضرا هناك .

فتدخل من جديد .

أليس هذا لأنه مجرد عن حب النفس ؟

من أجل هذا يستطيع أن يصل بنفسه إلى الكمال[1] .

(١) ألا تتحقق كل أهدافه الشخصية لأنه لا يسعى إلى أية هدف شخصى ؟

- ٨ -

المـــاء

الخير الأسمى يشبه المـاء .

وخير ما فى المـاء : أنه ينفع الـكائنات العشرة آلاف ،

ومع ذلك فهو لا ينازعهم شيئا ؛

بل يتجمع فى أماكن (واطئة)

تستبشعها عامة الناس

ذلك ما يجعل المـاء قريبا من الطريق .

خير ما فى المسكن : هو الأساس

خير ما فى التفكير : هو العمق

خير ما فى العطاء : هو الإنسانية

خير ما فى الـكلام : هو الصدق

خير ما فى الحكم : هو النظام

خير ما فى العمل : هو المقدرة [1]

---

(١) التأثير .

خير ما فى الحركة : هو الوقت الملائم .

طوبى ! من لا يتنازع

هو وحده الذى تحصن ضد الهوان [1]

---

(١) لأنه لا يسعى إلى شىء .

يظل بعيدا عن الضلال (أو الملام) .

ويلاحظ أن البيت التاسع (خير ما فى العطاء هو الإنسانية) يتناقض مع الفصول ٥ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ، ٤٤ على الأقل من ناحية اللفظ .

— ٩ —

خطر النجاح الزائد عن الحد

أمسك الكأس واملأها فى الوقت نفسه

وسوف تتمنى لو أنك تركتها وشأنها !

المس حد السيف واشحذه إلى أقصى درجة

وسوف تجد أنه لن يظل قاطعا !

املأ القاعة بالجواهر والأحجار الكريمة

وسوف تعرف أنك لن تستطيع أن تحرسها على الدوام .

المغرور بالغنى والشرف

يوقع نفسه فى الشر .

أن تتم عملك

ثم تتوارى

ذلك هو طريق السماء .

— ١٠ —

عانق الواحد

أَلجم روح الجسد[١] ، عانق الواحد

وسوف لا تحيد عن الطريق ؛

اجمع النفَس ، ابلغ الوداعة[٢] .

وسوف تصبح كالطفل .

نقّ نظرتك الصوفية[٣] وصفّها

وسوف تبقى بلا عيب .

حافظ على شعبك وأنت تحكم بلدك

وسوف تبقى بلا فعل[٤]

---

(١) النفس .

(٢) الليونة أو الرقة .

(٣) نظرتك إلى السر .

(٤) هل تستطيع أن تحب شعبك وتحكم بلدك .
وتظل مع ذلك مجهولا ؟
والمعنى : هل تستطيع أن تحكم دون أن تلجأ إلى القوة ، أى أن تفعل دون أن تلجأ إلى التدخل بالفعل .

افتح أبواب السماء وأغلقها ،
وسوف تصبح أنثى صغيرة [١] .
أنر (بالمعرفة) أطراف العالم الأربعة
وسوف تظل مجهولا على الأرض [٢] .
أنتج هذا ، وارع هذا ! [٣]
أنتج ، ولكن لا تملك ؛
افعل ، ولكن لا تعوِّل على فعلك ؛
دبر ، ولكن لا تحكم —
هذا ما يسمونه بالفضيلة الصوفية .

---

(١) هل تستطيع وأنت تفتح أبواب السماء وتغلقها أن تقوم دائما دور الأنثى ؟
(٢) هل يستطيع عقلك أن ينفذ إلى كل ركن في البلاد ولكن دون أن تتدخل بنفسك ؟
(٣) ارعهم ، إذن ، أطعمهم
ارعهم ، ولكن لا تعول عليهم .
احكمهم ولكن لا تعتمد عليهم .
كن رئيساً بينهم ، ولكن لا تدبر أمورهم .
هذا ما يسمونه بالقوة السرية .

- ١١ -

عدم الوجود

ثلاثون شعاعا [١]

تتجمع فى دولاب العجلة .

ولكن هنالك حيث لا يكون شىء ،

تكون منفعة العجلة .

قدّ وعاء من الطين

لتشرب منه .

هنالك ، حيث لا يكون شىء [٢]

تكون منفعة الوعاء .

انجر أبواباً ونوافذ

لتعدّ منها مسكناً

---

(١) الثلاثون شعاعا فى دواليب العربات الصينية القديمة ترمز إلى أيام الشهر .

(٢) أى حيث يكون تجويف الوعاء .

هنالك ، حيث لا يكون شيء [1]

تكون منفعة المسكن .

حقاً :

إن عرفت منفعة الوجود

فاعرف أن عدم الوجود ينفعك .

(١) أي من الفراغ الذي ينشأ بين الأبواب والجدران .

- ١٢ -

الألوان والأنغـام

الألوان الخمسة

تجعل عين الإنسان عمياء ؛

الأنغام الخمسة

تجعل أذن الإنسان صماء ؛

الطعوم الخمسة

تجعل فم الإنسان لا يستسيغ طعماً .

سباق العربات والصيد

يصيب عقل الإنسان بالجنون ،

المتاع العسير المنال

يجعل خطوهم ثقيلا .

لذلك فإن الحكيم

يعمل من أجل البطن [1]

---

(١) البطن هنا بمعنى الباطن أو القوى الباطنة فيه .

لا من أجل العين .

حقاً :

إنه يدع ذاك ! ويتمسك بهذا ![1]

الشرف والعار كلاهما شوكة[2] .

التكريم ألم عظيم كألم جسدك[3] .

ما معنى القول :

بأن الشرف والعار كلاهما شوكة ؟

(معناه أن) الشرف شيء رفيع كما أن العار شيء دنيء .

وأن بلوغهما شوكة .

معنى هذا : أن الشرف والعار كلاهما شوكة[4] .

ما معنى القول :

---

(١) أى أنه يترك العالم الخارجى ، ويتمسك بالقوة الكامنة فيه من لدن الطريق .

(٢) هذا والألوان الخمسة هى الأخضر فى زرقة ، والأصفر ، والأحمر ، والأبيض ، والأسود. والطعوم الخمسة هى فى الأغلب المر ، والحامض ، والملحى ، والحار ، والحلو .

(٣) فى الترجمة الإنجليزية : كلاهما يؤدى إلى الجنون — أو كلاهما يسبب خيبة الأمل (لين يوتانج) . والشوكة هنا معناها الدافع الذى يحفزنا إلى بلوغ الشرف أو اكتساب رضا الحكام. وقد يكون معناها السخط أو اليأس الذى يستولى علينا حين يغضب الحكام علينا ، وكلاهما يخل بتكاملنا النفسى وسعادتنا الجسدية .

(٤) ما نقدره وما نخشاه كلاهما كامن فى نفوسنا .

(٥) فى ترجمة لين يوتانج .

ما معنى القول بأن الشرف والعار يسببان خيبة الأمل ؟

الذين يتلقون الشرف من أعلى ، يخيب أملهم حين يتلقونه ،

كما يخيب أملهم حين يفقدونه .

إن التكريم ألم عظيم كألم جسدك ؟

معناه أن إحساسنا بالآلام العظيمة

يرجع إلى أن لنا جسداً .

ولو كنا بغير جسد

فكيف كان يمكن لنا أن نتألم !

حقاً :

كرم الدولة كما تكرم جسدك

يعهد إليك بحكمها .

احفظ الدولة كما تحفظ جسدك

يسند إليك تدبير أمرها [1] .

---

(١) في ترجمة والي : الحاكم الذي ينظر إلى الدولة (الإمبراطورية أو المملكة) كما ينظر إلى جسده ، جدير بأن يعهد إليه بالحكم ، والحاكم الذي يحب رعاياه كما ينبغي على الإنسان أن يحب جسده ، هو خير من يسند إليه الحكم .

يفسر والي السطور الأولى من هذه المقطوعة بأن لاوتسي يرى أن الجسد أو النفس هما مصدر كل ألم . فإذا كان على الحاكم أن ينظر إلى منصبه الرفيع كما ينظر إلى جسده فإن معنى هذا أن عليه أن ينظر إليه على أنه مصدر كل ألم وعذاب وخيبة أمل .

– ١٤ –

أصل الطريق

تتطلع إليه ، ولكنه لا يرى —

اسمه ما لا يرى .

تنصت إليه ، ولكنه لا يسمع —

اسمه ما لا يسمع .

تمد يديك إليه ، ولكنه لا يلمس —

اسمه ما لا يلمس .

هذه الثلاثة لن تستطيع أن تمعن فى البحث عنها ؛

حقاً ،

مختلطة هى ومرتبطة بالواحد .

إن أشرق لم يكن نور

إن أفل لم يكن ظلام .

غير متناه هو ، لاسبيل إلى تسميته ؛

وإلى مملكة العدم عاد .

ذلك ما يسمونه :

شكل ما لا شكل له ،

صورة ما لا قوام له

ذلك ما يسمونه : المنزلق [1]

من يلتقى به : لا يرى وجهه

من يتبعه ، لا يلمح ظهره .

تمسك بطريق القدماء

وسوف تتحكم فى الحاضر ! [2]

إن عرفت ما فى البدء كان [3]

فقد عرفت ما نسميه سر [4] الطريق .

---

(١) المظهر الغامض أو الوهج .

(٢) وسوف تتحكم فى ما هو موجود .

(٣) إن عرفت المبدأ الأصيل — أى إن عرفت ما كان فى الكون وما كان فى الذات .

(٤) ماهية الطريق أو حكمته .

– ١٥ –

الحكماء الأقدمون

من كان فى العصر القديم حكيما ومعلماً [١]،

كان دقيق الفكر ، غنياً بالأسرار ، نافذ البصيرة ؛

كان من العمق ، بحيث ظل عصياً على الفهم.

ولأن أحداً لم يستطع أن يفهمه

لذلك أحب أن أعرض مسلكه :

متردد ، آه !

كأنه يعبر نهراً فى الشتاء ؛

خائف ، آه !

كأنه يخشى الجيران من حوله ؛

متزن ، آه !

---

(١) أولئك الذين كانوا سادة البلاد (أو ملوكا وحكاما). والملوك كما فى الفكر القديم كله هم أبناء السماء . والسماء عند الحكيم التاوى مرادفة للطريق . والطريق هو المطلق ، الدائم ، الأبدى والأزلى على السواء .

كأنه يجلس فى حضرة مضيفه ؛

متسامح ، آه !

كأنه الثلج عندما يذوب ؛

أصيل ، آه !

كأنه خشب لم تمسه يد ؛

واسع الصدر ، آه !

كأنه وادى النهر ؛

مضطرب ، آه !

كأنه دوامة (من الماء العكر) .

من يستطيع أن يهدئ الدوامة ،

حتى تصفو شيئاً فشيئاً ؟

من يستطيع أن يحرك الساكن ،

حتى تعود إليه الحياة بالتدريج ؟

من يحافظ على هذا الطريق ،

لا يتوق إلى الامتلاء[1] .

لأن ما يمتلىء

هو ما قد يهلك ولا يتجدد .

---

(١) لا يتوق إلى أن يملأ نفسه إلى الحافة .

– ١٦ –

معرفة القانون الأبدى

أن تصل إلى الطرف الأقصى للفراغ .

أن تحافظ على السكون ، على الثبات .

الكائنات العشرة آلاف تشارك بعضها بعضاً فى الفعل

بذلك أستطيع أن أتأمل عودتها .

فكلما ازدهرت الكائنات وزهت ألوانها

عاد كل منها إلى وطنه الأصلى .

العودة إلى الأصل معناها : أن تجدالسكون .

أن تجد السكون معناه : أن تعود إلى القدر.

أن تعود إلى القدر معناه : أن تكون أبدياً.

أن تعرف الأبد معناه : أن تكون متجلياً .

من لا يعرف الأبد

يوجد الشر بغير عقل ؛

من يعرف الأبد ، فهو صبور .

أن تـكون صبوراً معناه أن تـكون حراً ،

أن تكون حراً معناه ، أن تحيط بكل شيء ،

أن تحيط بكل شيء معناه : أن تـكون سماوياً .

ولـكن الطريق سماوى .

ومن يلازم الطريق يبقى

إن سقط جسده ، لا يتعرض لخطر .

- ١٧ -

الحـــاكمون

أصحاب المناصب العليا[١]

لا يعرف الشعب عنهم إلا أنهم موجودون.

الذين يتلونهم فى الدرجة

يحبهم الشعب ويثنى عليهم ؛

والذين يأتون بعدهم

يخشى بأسهم ،

والذين يأتون بعد هؤلاء ،

يستبشعهم .

من لا يثق بالناس ثقة كافية [٢]

لا يخلص له أحد[٣] .

---

(١) أعلى الأعلين .

(٢) من لا يحوز ثقة الشعب .

(٣) يفقد بعض الناس إيمانهم بهم .

كم كان حياؤهم ، وهم يكرمون الكلمة [1] !

ما إن يتم الفعل ، وينجز العمل ،

حتى تقول الأجناس المائة[2]

لقد فعلناه من تلقاء أنفسنا .

---

(١) وعندئذ يفزعون إلى الإيمان .

(٢) حتى يقول الناس أجمعون .

- ١٨ -

سقوط « التاو » (الطريق) وضياعه

عندما يتخلى الناس عن الطريق العظيم

توجد « الإنسانية » و « العدالة » .

وعندما تظهر الفطنة والمعرفة

يتبعهما النفاق على الأثر .

حين لا تعيش العلاقات الست [١] فى وئام

تسمع (الثناء) على « الآباء الطيبين » و « الأبناء الأوفياء » ؛

وحين تهوى البلاد فى الفوضى والاضطراب

تسمع الثناء على « الوزراء المخلصين » [٢]

---

(١) أو الكائنات المرتبطة برباط الدم وهم الأب والأم والإخوة الكبار والصغار ، والزوجة والأبناء .

(٢) على الرعايا المخلصين .

- ١٩ -

تحقيق الذات البسيطة

اطرد الحكمة ، اطرح الفطنة [١]

وسوف يستفيد الشعب مائة مرة

اطرد « الإنسانية » ، اطرح العدالة

وسوف يعود الشعب إلى طاعة الأبناء ، وحب الآباء [٢] .

اطرد المهارة ، اطرح المنفعة ،

وسوف يختفى اللصوص وقطاع الطريق .

هذه الأمور الثلاثة لا تكفى لكى تعدها من علامات التحضر

أصدر أمراً يلزم الناس إلزاماً !

---

(١) أو انبذ المعرفة ، أى الشهوة إلى الاستزادة من العلم بالعالم الخارجى ومظاهره المتعددة دون الالتفات إلى الوحدة التى تكمن وراءها. وغالبا ما يقصد لاوتسى بالتعلم قواعد آداب السلوك التى بلغ عددها ٣٣٠٠ قاعدة والتى كان على الصينيين أن يتعلموها .

(٢) وسوف يصبح الشعب مقدرا لواجبه وشفوقاً .

تأمل البّراق وتلمس البسيط !

تحكم فى أثرتك واقتصد فى شهواتك[1] !

(١) فى ترجمة والى :
حقا :
أعطهم الوصية التى تلزمهم
أعطهم البساطة ليتأملوها ،
والخشب الخام ليمسكوا به
أعطهم الإيثار وقلة الرغبات .

– ٢٠ –

العالم وأنا

اطرح التعلم وسوف تنتهي همومك !

أي فرق هناك بين « أجل » وبين « بكل سرور » [(١)] .

بين الخير والشر

أي فرق هناك ؟

إن ما يخاف منه الناس

جدير حقاً بأن تخافه

---

(١) في هذا البيت هجوم على آداب اللياقة وطقوسها وبخاصة كما وردت في كتاب (لي — جي) أو كتاب الطقوس الذي يحدد قواعد السلوك عند الكونفوشيين .
وكلمة « أجل » إشارة إلى القاعدة الواردة في ذلك الكتاب والتي تقول : « إذا أقام الصبي عند أبويه أو عند عمه أو خالته وقدما إليه شيئاً كان من الواجب عليه أن يقول لهما « أجل » (أو حاضر !) وأن ينفذ ذلك بعناية . هذا والقصيدة كلها تبدو في نظر فريق من المترجمين وكأنها أشبه باعتراف شخصي من المؤلف يسجل فيه حيرته وعذابه .

ولكن آه ، ما أبعد الفجر ![1]

الناس جميعهم فرحون

كأنهم يشاركون فى وليمة التضحية

كأنهم ذاهبون إلى مهرجان الربيع [2]

أنا وحدى أرقد فى سكون

ما من إشارة أعطيتها ، [3]

أشبه بطفل صغير

لم يبتسم مرة واحدة فى حياته

أترنح وأتمايل ،

كأننى أضعت وطنى .

الناس جميعاً عندهم فوق ما يكفيهم

أنا وحدى تعريت عن كل شىء[4]

---

(١) إن ما يتجنبه الناس ،
عليك أيضاً أن تتجنبه
ما أشد فساد هذا القول ! ما أبعده فى السطحية !
وفى ترجمة ديبون :
ان ما يخضع له سائر الناس
ينبغى عليك أيضاً أن تخضع له :
ما أشد الحيرة ! وما أبعد النهاية !

(٢) كأنهم فى طريقهم إلى شرفة الربيع .

(٣) يعطى الطفل إشارة بأن يمد يده نحو شىء ما ، وقد كان الصينيون يعدون ذلك علامة تدل على مستقبل الطفل .

(٤) أنا وحدى أبدو كأننى فقدت كل شىء .

حقاً ! إن قلبي ، قلب أحمق
معتم ومضطرب[1].
عامة الناس لا معون ،
أنا وحـــــدى مظلم ،
عامة الناس جادون واثقون من أنفسهم
أنا وحدى متعب حزين القلب ؛
ثائر ثورة البحر ،
مضيع ، وكأنى بغـــير هدف .
الناس جميعاً يتطلعون إلى هدف نافع[2]
أنا وحدى عنيد كأنى ابن الوحوش .
أنا وحدى غير الآخرين[3]
وأنا الذى أمجد الأم المرضع

---

(١) عقلى عقل أحمق ،
وما أغبانى !.
(٢) الناس جميعاً نافعون .
(٣) أنا الذى لا يقدر شيئاً لا يأتى من ثدى الأم .

- ٢١ -
تكشف الطريق

علامات الفضـــــيلة العظيمة

تنبثق عن « الطريق » وحده .[١]

الشيء الذى يسمى بالطريق (تاو)

ينزلق ، ويفلت من القيـاس

ينزلق ، ويفلت

ولـكن الصور كلها كامنة فيـــــه .

ينزلق ، ويفلت

ولـكن الـكائنات جميعاً مستسرة فيه .

مظلم وعسكر

ولـكن بذور الحيـــــاة[٢] كامنة فيه

بذور الحياة هى الحقيقة

---

(١) مسلك (أو هدف) الفضيلة العميقة
يتبع الطريق وحده .

(٢) قوة الحياة .

والصدق كامن فيها .
من أقدم العهود إلى اليوم
لم يتوقف اسمه[1]
حتى نرى من خلاله أب الأشياء جميعاً .[2]
ومن أين لى أن أعرف أب الأشياء جميعاً ؟
عن طريق هذا[3] .

(۱) أى لم تنقطع صوره عن الظهور .
(۲) ولكنه يرعى المحاربين جيماً .
(۳) أى على نحو تلقائى ، بلا استنتاج ولا استدلال .

- ٢٢ -

عدم جدوى السعي

المعوج سوف يستقيم

والمنحنى سوف يعتدل

والأجوف سوف يمتلئ

والممزق سوف يتجدد

بالقليل سوف تنال

وبالكثير سوف يضيق صدرك (١) :

(١) والى :

أعوج لكى تظل كاملا .

انثن لكى تستقيم .

كن فارغا لكى تمتلىء

الذين يملكون القليل سيحصلون على الكثير

الذين يملكون الكثير سوف يتحيرون

لذلك فالحكيم :

يتمسك بالوحدة الأولى

ليقيس بها كل شىء تحت السماء .

لا يرى نفسه ؛ لذلك يتميز

لا يكابر بعمله ، لذلك ينجح

لا يفاخر بفعله ، لذلك يكتب له البقاء .

لذلك فإن الحكيم (أو القديس)

يحيط بالواحد

ويصبح نموذجا للعالم (أو يصبح مقياس المملكة) .

لأنه لا يكشف عن نفسه

فهو متجل ،

لأنه لا يعطى الحق لنفسه

يُعترف به

لأنه لا يدعى

يثق النـــاس به

لأنه لا يمجد نفسه

يمجده الناس .

ولأنه لا يسعى إلى شىء

لذلك لا يسعى أحد بشىء ضده (١)

عندما قال القدماء :

---

(١) ديبون :

لأنه لا يتنازع

لذلك لا يستطيع أحد فى المملكة

أن يتنازع معه

« المعوج سوف يستقيم »[1]

لم تـكن تلك كلمات فارغة ![2]

ألا فلنعد إلى الصواب الحق .

(١) لين يوتانج :

من لا يتفاضى لا يغض منه شيء .

(٢) لين يوتانج :

هكذا يظل مصونا والعالم كله يكرمه .

— ٢٣ —

الاتحاد بالطريق

لا تتكلم إلا نادراً —

فهذه هى إرادة الطبيعة

حقاً :

الإعصار لا يدوم صباحا بأكمله ؛

المطر لا يتساقط اليوم بطوله

ولكن من الذى يفعل هذا ؟ السماء والأرض [1] .

وإذا كانت السماء والأرض

لا تستطيعان أن تمنحا الدوام

فما أقل نصيب الإنسان منه .

حقاً :

من يتبع الطريق فى أعماله

(١) أو الطبيعة كما نقول اليوم ، ولعل الإعصار والمطر بالنسبة للطبيعة كالكلام بالنسبة للانسان . كما أن الكلام مرادف للحكم عن طريق القوانين والتعليمات .

يصبح هو والطريق شيئاً واحدا ؛

من يهتدى بالفضيـــلة [1]

يصبح هو والفضيلة شيئاً واحداً

ومن يضيع الطريق

يصبح هو والضياع شيئاً واحداً .

عندما يتحد إنسان مع الطريق ، فكذلك يفرح به الطريق

عندما يتحد إنسان مع الفضيلة ، فكذلك تفرح به الفضيلة

عندما يتحد إنسان مع الضياع ، فكذلك يفرح الضياع

بأن يكسبه إلى جانبه .

ومن لا يثق بالناس ثقة كافية

لن يجد أحداً يثق به .

---

(١) أو القوة أو الجوهر والماهية (تى) .

- ٢٤ -

من يملك الطريق

من يقف على أطراف أصابعه ، لا يتماسك ؛

من يوسع بين ركبتيه ، لا يسير ؛

من يرى نفسه ، لا يتجلى (بنور المعرفة)(١) ؛

من يعطى نفسه الحق ، لا يعترف به !

من يدعى ، لا يثق به أحد !

من يغتر بنفسه ! لا يعلو فى نظر الناس(٢)

معنى هذا فى لغة « الطريق » :

الكثير من الطعام والأبهة

تسئم المخلوقات .

حقاً :

من يملك الطريق ! لا يتلبث عنده (٣) .

---

(١) من يكشف عن نفسه ؛ لايكشف عنه ؛

(٢) من يمجد نفسه ، لا يمجده أحد .

(٣) من أجل هذا يحتقرها رجل الطريق .

— ٢٥ —

النماذج الأربعة الأبدية

قبل أن تكون السماء والأرض

كان هناك كائن عديم الشكل

بلا صوت ، وبلا مكان[١]

صامت ، مفارق

وحيد ، لا يتغير[٢]

يدور دورة أبدية بغير أن يتعرض للخطر ،

تستطيع أن تعده أم الأشياء جميعاً تحت السماء.

أنا لا أعرف اسمه

وأخاطبه بقولى « الطريق » (تاو) حتى يكون له اسم .

فإذا اجتهدت فى تسميته

قلت : العظمة

---

(١) وبلا مادة .

(٢) لا يعتمد على شىء ، لا يتغير .

العظمة معناها ، أن تفقد نفسك

أن تفقد نفسك معناه : أن تبتعد

أن تبتعد معناه ، أن تعود لنقطة البداية.

حقاً :

إن الطريق عظيم ، وعظيمة هى السماء

عظيمة هى الأرض ، وعظيم هو الملك !

أولئك هم الأربعة الكبار فى الكون

والإنسان أحدهم .

الإنسان يتخذ الأرض قانوناً له [1]

والأرض تتخذ السماء قانوناً لها

والسماء تتخذ الطريق قانوناً لها

والطريق يتخذ قانونه من نفسه [2] .

---

(١) أو يشكل نفسه وفقاً للأرض والأغلب أن كلمة الإنسان هنا تدل على الحاكم أو الملك بالمفهوم الشرقى .

(٢) أى مما يستمد وجوده من نفسه ، وليس مشروطا بغيره .

- ٢٦ -

الثقيل والخفيف

الثقيل[١] جذر الخفيف ،

الساكن سيد المتعجل .[٢]

من أجل هذا :

يسافر الحكيم اليوم كله

ومع ذلك لا يغادر عربته (الثقيلة) .

تحوطه نظرات (الإعجاب) البراقة

ومع ذلك يظل فى مكانه ، متزنا ، هادئا .

كيف يستطيع إذن من يتحكم فى عشرة آلاف عربة حربية

أن يأخذ المملكة لذاتها مأخذا خفيفا ؟[٣]

---

(١) أو الثابت .

(٢) أو النزق الطائش .

(٣) كيف يستطيع حاكم بلد عظيم ،
أن يأخذ جسده مأخذاً خفيفا ؟

ان هو أخذها بخفة، فقد الجذر (والأساس) ؛

وإن تهور فى طيش ، أضاع السيادة .[1]

---

(١) بالخفة الطائشة ، يضيع الوسط ؛
بالتصرف العاجل ، يضيع التحكم فى النفس .

- ٢٧ -

سرقة النور

العداء الجيد لا يترك أثرا وراءه[١]

المحدث الجيد لا يزل لسانه

الحاسب الجيد لا يحتاج إلى عصى الحساب[٢]

البـاب المغلق جيدا لا يحتاج إلى قفل ولا مزلاج

ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يفتحه

العقدة المعقودة جيدا لا تحتاج إلى رباط

ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يفـكها .

من أجل ذلك يفهم الحـكيم دائماً كيف يساعد الناس ؛

ولذلك لا يوجد إنسان ينبذه [٣]

إنه يفهم كيف يساعد الـكائنات

---

(١) السائق الجيد لا يترك أثراً وراءه .

(٢) وهى أعواد صغيرة من الخوص يلقى بها فى أوان .

(٣) ولذلك لا يوجد ثمة أناس منبوذون .

أو كما فى ترجمة والى : إنه لا يدير ظهره للكائنات .

ولهذا لا يوجد ثمة كائن ينفر منه .

هذا ما يسمونه : سرقة النور [1]

حقا : الطيب هو معلم الشرير [2]

والشرير هو رصيد الطيب .

ومن لا يكرم معلمه

ولا يحفظ رصيده

إنسان ضل إلى أبعد حد

على الرغم من أنه قد يكون عالما .

ذلك هو السر المهم .

---

(١) النور المزدوج (ديبون)
أو هذا ما يسمونه الالتجاء إلى النور (والى) .

(٢) الكامل هو معلم الناقص
ولكن الناقص هو رصيد الكامل .

- ٢٨ -

الرجولة والأنوثة

اعرفوا رجولتكم ،

احتفظوا بأنوثتكم !

بذلك تكونون منبعا لمملكة الأرض .

من كان منبعا لمملكة الأرض :

لم تتخل عنه الفضيلة الأبدية ،

إلى الطفولة يعود من جديد .

اعرفوا نوركم[1]

احتفظوا بظلامكم[2]

بذلك تكونون مقياسا[3] لمملكة الأرض .

من كان مقياسا لمملكة الأرض

لم تخطئه الفضيلة الأبدية ،

---

(١) إشراقكم أو بياضكم .

(٢) ظلامكم أو سوادكم .

(٣) نموذجا .

إلى غير المحدود[١] يعود من جديد .

اعرفوا كرامتكم[٢]

احتفظوا بعاركم !

بذلك تكونون واديا لمملكة الأرض :

من كان واديا لمملكة الأرض :

فلديه ما يكفيه من الفضيلة الأبدية ،

إلى البسيط والطبيعى يعود من جديد[٣] .

عندما يقطع الإنسان الخشب غير المصقول

تصنع منه الأدوات

وعندما يستخدمها الحكيم[٤]

يصبح مدبرا للموظفين (والقضاة) .

حقا :

إن النسق العظيم غير مصقول[٥] .

---

(١) العدم الأصلى .

(٢) شرفكم أو مجدكم .

(٣) إلى الخشب الذى لم تقطعه يد إنسان .

(٤) الأوعية .

(٥) القديس أو الرجل المقدس .

(٦) من أجل هذا لايقطع الحاكم العظيم (خشباً) .

- ٢٩ -

تحذير من التدخل

من الناس من يريد أن يغزو العالم

وأن يعمل منه (ما يتصوره أو تشتهيه نفسه)

أنا أتنبأ ، بأنهم لن يفلحوا فى ذلك

(ذلك) لأن العالم هو وعاء الله[١] ؛

لا يجوز أن يعمل فيه شىء

من يلامسه بالعمل ، يفسده[٢]

من يتمسك به ، يفقده

حقا : إن الكائنات تسير أحيانا فى المقدمة

وأحيانا فى المؤخرة ،

تارة تكون أنفاسها حارة

وتارة باردة

---

(١) أو هو جهاز الروح .

(٢) أى من الخطر التدخل فيه من جانب البشر .

تارة تكون قوية
ثم لا تلبث أن تضعف
تارة تتهشم وتارة تتداعى
لذلك يتجنب الحكيم التطرف[1]
يتجنب التهور ،
يتجنب الخيلاء .

(١) وإلى : يتجنب المطلق .

- ٣٠ -

تحذير من الالتجاء إلى القوة

الذى يستعين بالطريق (التاو) لكى يعاون الحاكم فى حكمه للبشر ،
لن (يفكر فى أن) يهزم المملكة بقوة السلاح[١]
لأن مثل هذه القوة لا بد أن تعود فتنقلب عليه[٢] .
حيث تكون الجيوش ،
تنمو الأشواك والأحراش
وبعد المعركة العظيمة
تأتى السنون العجاف[٣]
لذلك يصل القائد الجيد إلى هدفه ثم يتوقف
إنه لا يتجاسر على الاعتماد على قوة السلاح
يصل إلى هدفه ولكن لا يمجد نفسه ؛

---

(١) ولى : سوف يعارض كل غزو عن طريق السلاح .
(٢) ديبون : من السهل أن تعود . .
(٣) وتكوين جيش عظيم تتبعه سنة عجفاء .

يصل إلى هدفه ولكن لا يدعى أو يكابر ؛

يصل إلى هدفه ولكن لا يفاخر ؛

يصل إلى هدفه ولكن مدفوعا بالضرورة المؤسفة

يصل إلى هدفه ولكن لا يلجأ إلى القوة .

ذلك لأن الكائنات تهرم حين تصل إلى ذروتها

وذلك ما يقولون عنه : إنه يخالف الطريق

وكل من يخالف الطريق سوف ينتهى ولما يزل فى شبابه .

- ٣١ -

أسلحة الشر

من كل الأشياء ، الأسلحة هى أدوات الشر[١]
مكروهة من الكائنات
لذلك فإن الحكيم (الذى يسير على الطريق)
لا يسكن قريباً منها .
إن وجد النبيل[٢] نفسه فى بيته
فهو يفضل اليسرى
وإن استخدم السلاح
فضل اليمنى .[٣]
الأسلحة هى أدوات الشر
ليست أدوات الرجل النبيل
إنه لا يلجأ إليها إلا مضطراً

---

(١) النحس أو المصائب .
(٢) النبيل هنا هو الذى ينحدر من أصل طيب ويتميز لهذا السبب بالخلق الطيب .
(٣) والى : هو فى السلام يفضل جانب اليد اليسرى
أما فى الحرب فينعكس الأمر ويفضل جانب اليد اليمنى

وداعة السلام مثله الأعلى[1]

إذا انتصر لم يجد فى الانتصار جمالا

لأن من يجده جميلا

يفرح بقتل غيره من البشر

ومن يفرح بقتل غير من البشر

لا يسمح أن يفرض إرادته على المملكة[2] .

عندما يقتل الناس جماعات

يندبونهم فى يأس وحزن

ومن ينتصر فى المعركة

فعليه أن يحتفل بانتصاره كما يحتفل بجنازة.

---

(١) لين يوتانج : ان وجد نفسه مضطرا الى استخدام الأسلحة
فان خير سياسة يتبعها هى الانزواء فى هدوء .

(٢) والى : ومن يفرح بقتل البشر
لن يجد أبدا ما يبحث عنه
من أولئك الذين يسكنون تحت السماء .
أو كما فى ترجمة لين يوتانج : حتى الانتصار يخلو من الجمال
والذى يقول إنه جميل
رجل تفرح نفسه بالمذابح
ومن يفرح بالمذابح
لن يفلح طموحه فى غزو العالم .

- ٣٢ -

الطريق كالبحر

الطريق أبدى[١] ، لا اسم له .

وبساطة (ما لا اسم له)

مهما تكن ضآلتها —

لا تجرؤ مملكة الأرض

على أن تسخرها لخدمتها[٢] .

لو يستطيع الأمراء والملوك أن يحتفظوا بهذا[٣]

لجاءت الكائنات العشرة آلاف ضيوفاً بمشيئتها[٤]

ولا تحدت السماء والأرض ،

لترسلا (عليهم) الندى العذب[٥]

---

(١) مطلق .
(٢) لا يستطيع أحد أن يستخدمها وعاء .
(٣) أى بهذه الطبيعة الأصلية التى لم تفسد .
(٤) لبو أمم العالم كله باختياره مكان السيادة .
(٥) المطر العذب .

ولأصبح الشعب متحداً

بغير حاجة إلى الأوامر .

من الخير

بعد أن وجدت الأسماء [١]

أن نعرف الحد الذى نتوقف عنده .

من عرف الحد الذى يتوقف عنده

عاش فى أمان .

إن أردت أن تجد شبيهاً

للطريق فى هذا العالم :

فهو يشبه الجدول ، يشبه نهر الوادى ،

الذى يسيل البحر .

---

(٦) بعد أن سمينا الأشياء بأسمائها .

- ٣٣ -

معرفة النفس

من يعرف غيره من الناس ، فهو عالم[١]

ومن يعرف نفسه ، فهو حكيم[٢]

من ينتصر على غيره من الناس يملك قوة العضل

ومن ينتصر على نفسه ، فهو قوى[٣] .

من يعرف القناعة ، فهوغنى

ومن يلجأ إلى القوة ، فعنده الإرادة .

من لا يفقد مكانه ، يبقى[٤]

من يموت ، بدون أن يفنى

يعمر طويلا .

---

(١) أى ذكى أو فطن .

(٢) أى متجل أو مكشوف عنه .

(٣) من ينتصر على نفسه فهو شديد البأس ،
أما من ينتصر على نفسه فهو أشد منه
(قارن ذلك بالحديث المشهور عن جهاد النفس)

(٤) والى : ولكن ما يلبث فى مكانه
هو وحده الذى يبقى .

الطريق يتدفق فى كل مكان

الطريق العظيم يسيل فى كل مكان(١)

بحيث يجرى (كالطوفان) إلى اليمين وإلى الشمال

الكائنات العشرة آلاف تستمد حياتها منه

وهو لا يمتنع عليهما .(٢)

إنه يعمل

ولكن لا يتشبث بعمله .(٣)

إنه يكسو ويغذى جميع الكائنات

ولكن لا يسود عليها

ولا يسألها شيئا .

---

(١) الطريق (التاو) العظيم كالقارب المنساب .
قد يسير فى هذا الاتجاه ، وقد يسير فى ذلك الاتجاه .

(٢) الكائنات العشرة آلاف تدين بحياتها له ، وهو لا يتنكر لها .

(٣) غير أنه بعد أن ينتجها
لا يسعى إلى امتلاكها .

ولأنه مجرد من الشهوة أبدا

يمكن أن يسمى بالصغير

ولـكن لما كان هو وطن جميع الأشياء

بغير أن يطمح إلى امتلاك شيء منها

فإن من الممكن أن يسمى بالعظيم .

كذلك الحكيم :

لأنه لا يعد نفسه عظيما

يصل إلى العظمة .

— ٣٥ —

سلام "التاو"

إن وضعت يديك على النموذج العظيم [1]
صارت مملكة الأرض طوع يديك —
تبعت (ظلك) وتحررت من الضر والألم —
(وعاشت في) وحدة ،وسلام ، ومساواة !
نغم الموسيقى وشذى الأطعمة :
تجذب الغرباء المسافرين .
أما ما يقدمه الطريق من الكلام
فلا يفوح منه عبير ،
ولا يستطيب مذاقه فم .
من يتطلع إليه ، لا يراه ؛
من ينصت اليه ، لا يسمعه ؛
من يستعمله ، لا يصل أبداً إلى قراره [2]

(١) أو التاو (الطريق) نفسه .
(٢) أى أصله وحقيقته .

– ٣٦ –

إيقاع الحياة

من أردت أن تغلبه

وجب عليك أولا أن تمنحه الغلبة [١]

من أردت أن تضعفه

وجب عليك أولا أن تعطيه القوة

من أردت أن تهينه [٢]

وجب عليك أن تعلى من قدره

ومن أردت أن تأخذ منه

وجب عليك أولا أن تعطيه .

هذا ما يسمى بالتجلي اللطيف [٣] :

اللين الضعيف

---

(١) أن تتيح له أن يعد قوته .

(٢) تتخلى عنه .

(٣) النور السرى .

يهزم الصلب القوى .

الوداعة تغلب القوة :

الأسماك ينبغى أن تترك فى المياه العميقة

وأسلحة الدولة الحادة

ينبغى ان تترك

حيث لا يراها أحد [1]

---

(١) وأشد أدوات الدولة مضاء

لا ينبغى أن تعرض على الناس .

- ٣٧ -

سلام العالم

الطريق (التاو) لا يعمل أبداً

ولكن كل شيء يعمل من خلاله .

لو استطاع الأمراء والملوك أن يحافظوا عليه

لتحسنت من نفسها أحوال العالم [١]

ولكن لو تحسن العالم واشتهى أن يعمل

وجب علينا أن نقفه عند حده [٢]

عن طريق البساطة القديمة التى لا اسم لها .

البساطة القديمة التى لا اسم لها [٣]

---

(١) أو : لتفتحت الكائنات العشرة آلاف
من تلقاء نفسها .

(٢) ولكن لو تفتحت الكائنات العشرة آلاف
وأرادت أن تعمل
وجب علينا أن نمنعها من ذلك .

(٣) أو بساطة من لا اسم له .

تحرر من الاشتهاء

والتحرر من الاشتهاء يؤدى إلى السكينة

و(بالسكينة) يصل العالم من نفسة إلى السلام [1]

(١) وبالبساطة تبلغ المملكة النظام .

الكتاب الثاني

- ٣٨ -

السقوط

أسمى الفضائل[1] لا تعرف شيئاً عن الفضيلة

من أجل هذا توجد الفضيلة .

أدنى الفضائل تتشبث بالفضيلة

من أجل هذا تفتقد الفضيلة .

أسمى الفضائل لا تعمل أبداً

وليس لديها هدف تعمل من أجله .

أدنى الفضائل تعمل

ولها كذلك هدف تعمل من أجله .

أسمى درجات الإنسانية تعمل

ولكن ليس لديها هدف تعمل من أجله .

---

(١) أو الرجل الذى يملك أسمى الفضائل أو أسمى قوة أو أوفر حظ من الخلق وكذلك الأمر فى سائر المقطوعات .

أسمى درجات العدالة تعمل
ولـكن لها هدفاً ، تعمل من أجله
أسمى درجات التأدب والخلق [1] تعمل
وإذا لم يستجب لها أحد
شمرت عن أكمامها وفرضت نفسها على الغير .
حقاً :
من يفقد الطريق (التاو)[2] ،
يصبح بعد ذلك فاضلا
من يفقد الفضيلة ،
يصبح بعدها عادلا .
من يفقد الخلق
يصبح بعدها عليماً بالشعائر والطقوس .

---

(١) يقول المفسرون إن المؤلف يستخدم هنا كلمة « لى » وهى تدل فى تعاليم كونفوشيوس على الأدب والذوق والخلق الاجتماعى الحسن والإلمام بالطقوس والشعائر الاجتماعية .

(٢) تتضح المقطوعة الأخيرة فى ترجمة والى :
بعد أن ضاعت « القوة »
جاءت الإنسانية ؛
بعد أن ضاعت الإنسانية ،
جاءت الأخلاق ؛
بعد أن ضاعت الأخلاق
جاءت الشعائر .

والعلم بالشعائر والطقوس

هو قشرة الأمانة والوفاء[1]

ومبدأ الشقاق .

قد يكون التنبؤ

هو زهرة الطريق

ولكنه هو أصل الحماقة .

لذلك فالرجل العظيم ، الناضج[2]

يعتمد على الجذع القوى

ويترك الفرع الذابل ؛

يأخذ بالثمرة

ولا يأخذ بالزهرة

حقاً :

دع ذلك ! وخذ بهذا ! [3]

(١) يبدو أن لاوتسى يدين هنا مذهباً كونفوشياً يجعل من الحكيم نبياً ، على نحو ما هاجم فى الأجزاء السابقة كثيرا من الآراء الكونفوشية .

(٢) الرجل النبيل .

(٣) حقا : إنه يدع ذاك ، ويأخذ بهذا .

- ٣٩ -

الواحِـــدُ

القدماء امتلكوا الواحد [1] ؛

السماء امتلكت الواحد

فصفت .

الأرض امتلكت الواحد

فسكنت [2] .

الأرواح امتلكت الواحد

فوهبت لها النفس [3] .

وديان الأنهار أعطيت الوحدة

فامتلأت .

الكائنات العشرة آلاف امتلكت الواحد

فعاشت ونمت .

---

(١) خلعت عليهم الوحدة .

(٢) فثبتت .

(٣) الآلهة امتلكت الواحد ، فوهبت الروح .

الأمير والملك امتلكا الواحد

فبسطا على مملكة الأرض النظام [1] .

الذى فعل هذا ، هو الواحد .

لو افتقدت السماء ما تصفو به

لا نشقت .

لو افتقرت الأرض إلى ما تسكن [2] به

لزلزلت .

لو أعوز الأرواح ، ما ينفخ فيها النفس .

لتحللت .

لو لم تجد الوديان ما تمتلىء به

لتلاشت .

لو لم تجد الكائنات العشرة آلاف ما يحييها

لفسدت .

لو افتقد الأميرو الملك من يكر مهما ويرفع من شأنهما ،

لانهار حكمهما .

حقاً .

الشرف جذره الاتضاع

---

(١) فاصبحوا نبلاء الشعب .

(٢) ما تثبت به .

الارتفاع كعبه الضعة . (١)

من أجل هذا يدعو الأمراء والملوك أنفسهم

باليتامى ، والعجزة ، والفقراء (٢) .

أليس هذا لأنهم يتخذون من الاتضاع جذراً لهم ؟ (٣)

حقاً :

من يبالغ فى الترفّع

لا يرتفع إلا قليلا . (٤)

لاتشته أن تبرق كالجوهرة

ولا أن ترن كالحجر الرّنان !

---

(١) من أجل هذا كان النبلاء يستندون على عامة الشعب كما يستند الأعلون على الأدنين.

(٢) أنا اليتيم ، قلتى ، وعجزى .

(٣) أليس هذا لأنهم يعتمدون على عامة الشعب ؟

(٤) حقا : فك أجزاء العربة ، ولن يبقى من العربة شىء .

لأن ترعد كالصخرة ، خير لك من أن ترن كالحجر النفيس .

– ٤٠ –

مبدأ العود

العود فعل الطريق

الوداعة تأثيره

من الوجود تأتي أشياء هذا العالم [١]

والوجود يأتي من عدم الوجود .

---

(١) من الوجود نشأت الكائنات العشرة آلاف .

– ٤١ –

أخلاق الطاوي

عندما يسمع معلم من درجة عالية بالطريق ،

فهو يحاول أن يسير على هداه .[1]

عندما يسمع معلم من درجة متوسطة بالطريق ،

فهو يسير عليه مرة ويتخلى عنه مرة .

عندما يسمع معلم من درجة دنيئة بالطريق

فهو يضحك عليه بغير صوت مسموع .[2]

ولو لم يضحك أحد على الطريق

لما كان خليقا بأن يكون هو الطريق .

من أجل هذا تقول الكلمات المأثورة :

إضاءة الطريق تشبه الظلام ؛

السبق على الطريق يبدو كالتراجع إلى الوراء .

---

(١) فهو يسير عليه بما يرضى الضمير .

(٢) فهو ينفجر فى ضحكة عالية الصوت .

تسوية الطريق تبدو أشبه بعدم الاستواء .

أسمى الفضائل تشبه الوادى [1]

أعظم المجد أشبه بالعار ،

أوسع الفضائل تبدو ضيقة .

أشد الفضائل ثباتا تحسب نفسها غير ظاهرة ؛

الحقيقة الكاملة تبدو كأنها فى زوال ؛

المربع العظيم يخلو من الزوايا . [2]

الجهاز العظيم يتم فى وقت متأخر ؛

الإناء العظيم نادرا ما يكون له رنين ؛ [3]

الصورة العظيمة لا شكل لها ؛

الطريق يتخفى ولا اسم له

طوبى ! الطريق وحده يمنح القوة والكمال .

---

(١) الفراغ الأجوف .

(٢) المكان العظيم بلا أطراف .

(٣) الموسيقى العظيمة يسمع لها صوت خفيض .

الطريق أوجد الوحدة .

الوحدة أوجدت الثنائية .

الثنائية اوجدت التثليث .[1]

التثليث أوجدت الـكائنات العشرة آلاف .

الـكائنات العشرة آلاف تحمل « ين » المعتم على ظهورها

(كما تحمل) « يانج » المضىء بين ذراعيها .[2]

نفس الخلاء يؤلف بينها .

ما يكرهه البشر

هو اليتم ، والقلة ، والعجز :

---

(١) من الطريق ينشأ الواحد ؛ ومن الواحد الاثنان ؛ ومن الاثنين الثلاثة ، ومن الثلاثة الـكون المخلوق .

(٢) واضح أن الواحد أو الوحدة تدل على الطريق . أما الثنائية أو الاثنان فهما يعبران عن مبدأين أحدهما مظلم ، بارد ، أنثوى (ين) والآخر مضىء ، دافىء ، رجولى (يانج) أو لعلها هما عدم الوجود والوجود . أما التثليث أو الثلاثة ، فلعلها السماء والأرض والحاكم (أو الانسان) .

ومع ذلك فإن الملك والأمير يسميان نفسيهما بهذه الأسماء

حقا ، إن الكائنات [1] :

من الناس من يقلل منها فتتكاثر ؛

ومن الناس من يكثر منها ، فتقل .

ما يعلّمه الناس

أعلّمه أنا أيضا .

المتجبر لا يموت ميتة طيبة .

هذا ما نريد أن نجعل منة معلّمنا الروحيّ .

---

(١) فى بعض الأحيان يكون من صالح الكائنات
أن ينتزع الانسان منها شيئا
كما يكون من الضرر عليها
أن يضيف إليها شيئا .

- ٤٣ -

أشد المواد ليونة

أشدّ المواد ليونة

يلحق فى السباق بأشدّها صلابة :

وما ليس له وجود

ينفذ فى مالا ثغرة فيه .[١]

من ذلك نعلم :

فضل عدم الفعل .[٢]

أن تعلّم بغير أن تتكلّم

أن تزداد بغير أن تفعل

شىء يندر أن يصل إليه الانسان

فى هذا العالم .

---

(١) ومالا شكل له ينفذ فيما لا تجويف له .

(٢) من ذلك نعلم أن ما يستغنى عن الفعل ، يتكاثر .

— ٤٤ —

كُنْ قَنُوعاً

المجد أو الجسد — أيهما أقرب اليك ؟

الجسد أو المتاع — أيهما أكثر قيمة من صاحبه ؟

الكسب أو الخسارة — أيهما أعظم شرا ؟

من أجل هذا :

من يحب كثيرا ، يعطى كثيرا

من يخزن الكثير ، يفقد الكثير

من يعرف القناعة ، لا يلحقه عار

من يعرف متى ينبغى عليه أن يتوقف

لا يتعرض لأذى

إنه يستطيع أن يعمّر طويلا .[1]

---

(١) إنه يعيش دائما فى أمان واطمئنان .

— ٤٥ —

السكون

أعظم الأشياء حظا من الـكمال ، يبدو متصدّعا ،

غير أن الاستعمال لا يناله بالبلى .

أكثر الأشياء امتلاء ، يبدو فارغا ،

غير أنه بالاستعمال لا ينفد عطاؤه .

أشدّ الطرق استقامة ، يبدو كالمعوجّ ،

أعظم الناس ذكاء ، يبدو كالغبيّ ؛

أفصح الناس يتهته كالأبكم .

بالاندفاع تغلب البرودة ؛

بالسكون تغلب الحرارة .

بالطهارة والسكينة

تجعل مملـكة الأرض عادلة .[1]

---

(١) من كان هادئا وساكنا ،
أصبح سيد العالم .

- ٤٦ -

خيول السباق

عندما تسير مملكة الأرض على هدى الطريق
تستخدم خيول السباق فى حمل السباخ .[١]
وعندما تضلّ مملكه الأرض عن الطريق
تربى خيول الحرب نفسها فى ضاحية المدينة[٢]
مامن ذنب أعظم
من أن يستسلم المرء لشهواته .
ما من شرّ أكبر
من أن يجهل الانسان القناعة
ما من عيب أخطر

---

(١) عندما يعيش العالم فى تجانس مع الطريق ، ترسل خيول السباق لتجر عربات القمامة . وعندما يعيش العالم غير متجانس مع الطريق ، يوجد فى الريف ما يزيد عن حاجته من الخيول .

(٢) حيث كانت تقوم المذابح المقدسة التى تقدم عليها القرابين إلى السماء والأرض .

من أن يسعى الإنسان إلى الكسب .

حقا :

من وجد الكفاية فيما يكفيه
فسوف يجد على الدوام ما يكفيه [1]

(١) من أجل ذلك وجب على من يقنع بالقناعة ، أن يكون راضيا على الدوام .

— ٤٧ —

السّعيُ وَراءَ المعـرفة

بغير أن تغادر باب بيتك

تستطيع أن تعرف كل شيء تحت السماء .

بغير أن تتطلّع من نافذتك

تستطيع أن ترى طريق السماء .

كلما ازداد سعينا إلى المعرفة

قلّت معرفتنا .

لذلك يصل الحكيم ، بغير أن يسافر بعيداً

ويفهم ، دون أن ينظر

ويحقق كل شيء

بدون أن يعمل شيئاً .

- ٤٨ -

اغز العالم بدون أن تعمل

اسع إلى المعرفة

تزدد يوماً بعد يوم .[١]

اسع إلى الطريق

تفقد يوماً بعد يوم .

أن تفقد وتفقد[٢]

حتى تبلغ عدم — الفعل .

ابق بغير عمل

ولن تجد شيئاً لم يعمل

إن أردت أن تملك المملكة

فكن على الدوام بلا عمل !

---

(١) تضيف إلى نفسك يوما بعد يوم .

(٢) تطرح من نفسك يوما بعد يوم . أن تنقص وتنقص .

لأن من يعمل ،

يعجز عن امتلاك المملكة .[1]

---

(٣) أولئك الذين اكتسبوا قديما عطف جميع من يعيشون تحت السماء .
قد بلغوا ذلك عن طريق عدم التدخل .
ولو أنهم تدخلوا (بالفعل)
لما كسبوا عطفهم أبدا .

— ٤٩ —

قلب الشعب

الحكيم ليس له قلب يختص به ،
بل يعد قلب الشعب قلبه .
« أنا خير مع الأخيار
ومع الأشرار أيضاً خيرٌ . »
بذلك يتلقى الخير .
« أنا أصدّق الصادقين
والكاذبين أيضاً أصدّقهم . »
بذلك أتلقى الثقة .
الحكيم يقيم فى المملكة والخوف يملأ قلبه .
من أجل المملكة يبلّد حسه .
الأجناس المائة تسدّد أبصارها وأسماعها إليه .
وهو يلقى الجميع وكأنهم أطفاله . (١)

---

(١) والى : الحكيم لا يرى ولا يسمع أكثر مما يرى الطفل ويسمع .

الخروج حياة ، الدخول موت . [١]

رفاق الحياة ثلاثة عشر .

رفاق الموت ثلاثة عشر . [٢]

المواضع المميتة فى إثارة الحياة لدى الإنسان

هى كذلك ثلاثة عشر . [٣]

من أين يأتى هذا ؟

من أنه يحيا حياته فى عنف وامتلاء [٤]

ذلك أننى سمعت :

---

(١) من الحياة يدخل الموت .

(٢) رفاق الحياة الثلاثة عشر هى فى نظر بعض الشراح : القدمان والرجلان وفتحات الجسد التسعة . أو كما يقول بعض المترجمين : الخروج من الحياة دخول فى الموت والناس يخرجون من الحياة ويدخلون فى الموت .

(٣) الذى يجلب الموت للانسان فى هذه الحياة ، هى كذلك ثلاثة عشر .

(٤) من الفاعلية الزائدة التى تهدف إلى الإكثار من الحياة .

أن من يعرف كيف يحافظ على حياته

يجوب الريف ولا يلتقى بخرتيت ولا نمر ؛

يدخل المعركة ولا يحمل درعاً ولا سلاحاً :

لا يجد الخرتيت الذى يغرز قرنه فيه ؛ [1]

لا يجد النمر الذى ينشب مخالبه فيه ؛

لا يجد السلاح الذى ينفذ حدّه فيه .

ومن أين يأتى هذا ؟

من أنه وراء الموت . [2]

---

(١) قرون الوعل عاجزة أمامه . مخالب النمر عقيمة معه . أسلحة المحارب لا تستطيع أن تصيبه بشيء .

(٢) لأنه يخلو من المواضع المميتة .

— ٥١ —

الفضيلة الصوفية

الطريق يلد ؛

الفضيلة ترعى ؛

الكائنات تشكل ،

القوة تتم . [١]

لذلك فليس من بين الكائنات العشرة آلاف

من لا يحترم الطريق ، ويكرم الفضيلة .

ما من أحد قد أمر بهذا

أبدا يحدث هذا من تلقاء نفسه .

---

(١) «التاو» (الطريق) يلدها ، « التى » (الخلق) يرعاها ، عالم المادة يعطيها الشكل ، ظروف اللحظة تبلغ بها الكمال . من أجل هذا تكرم جميع أشياء الكون « التاو » وتقدر « التى » .

حقاً

الطريق يلدها ؛ [1]

الفضيلة ترعاها ،

تدبر أمرها وتعنى بها ،

تزيد منها وتدعمها ،

تغذيها وتحميها .

أن تلد [2] ولا تملك ؛

أن تفعل ولا تعوّل على فعلك ؛

أن تدبر ولا تسود —

هذا ما يسمى بالفضيلة الصوفية .

---

(١) أى يخرج الموجودات جميعا أو الكائنات العشرة آلاف إلى الوجود .

(٢) أو تنتج وتبدع .

— ٥٢ —

سرقة المطلق

مملكة الأرض لها مبدأ :

يمكن أن ندعوه أم مملكة الأرض

من وجد أمه يوماً

عرف أنه ابنها .

من عرف يوماً أنه ابن

تفانى فى حرصه على الأم ؛

وإذا أسقط جسده ، صار فى مأمن من الخطر [١]

من سد سكته

وأوصد بواباته

لم يشق بجسده إلى نهاية الحياة . [٢]

---

(١) بذلك تحفظ الحياة كلها من الأذى .

(٢) أصبحت حياته بلا عناء .

من فتح سكته

ورعى أعماله ،

لم ينج جسده إلى آخر الحياة .

رؤية أصغر الأشياء هى التجلى

المحافظة على الوداعة هى القوة .

من يستعمل نوره

لكى يهتدى إلى التجلى

فهو لا يخسر شيئاً ، وإن أصاب الشر جسده .[1]

هذا ما يدعونه :

الاتصال بالأبدى .[2]

---

(١) استعملوا النور ، وعودوا الى التجلى (نفاذ البصر) ـ
بذلك تنجون من شر مقبل .

(٢) الراحة فى المطلق .

— ٥٣ —

الموظفون وقطاع الطريق

لو كنت أملك المعرفة القليلة [١]

وسرت على الطريق العظيم ،

لما خفت شيئاً

كخوفى من أن أحيد عن الطريق .

لأن الطريق العظيم معبد ومأمون

لكن الناس يؤثرون الطرق الجانبية .

البلاط [٢] يعج بالأبهة

بينما الحقول تملؤها الأعشاب الضارة .

مخازن الغلال فارغة ،

---

(١) لين يوتانج : المعرفة السامية .

(٢) كل شىء فى القصر على ما يرام

بينما الحقول لا تجد من يحرثها .

والموظفون يتدثرون بالثياب الزاهية

ويتحزمون بالسيوف الغالية

ويتخمون بطونهم بالطعام والشراب

ولديهم من الثروة والمتاع ما يفيض عن حاجتهم .

هذا معناه : تجبُّر قطاع الطريق

لا يمكن أن يكون هذا الطريق ! [1]

(١) وكذلك لا يكون الطريق .

— ٥٤ —

الفــــرد والــدولة

ما يُزرع زرعاً حسناً ، لا يجتث ؛ [١]

ما يُقبض عليه قبضة ثابتة ، لا يفلت . [٢]

هكذا تتصل الأضحية من الولد إلى الحفيد

بغير انقطاع . [٣]

ارع (هذه الفضيلة) فى نفسك ،

وسوف تــكون فضيلة حقة .

ارع (هذه الفضيلة) فى بيتك [٤] ،

---

(١) أى ما يزرعه « الطاو » .

(٢) أى أن ما يقبض عليه الطاو لا يفلت بسهولة .

(٣) أى أن فضيلة الطاو لدى الأجداد تمتد من جيل الى جيل .

(٤) وسوف تعيش أسرتك فى رخاء .

وسوف تعمّ فضيلتك .

ارع (هذه الفضيلة) فى موطنك [١]

وسوف تترعرع وتنمو . [٢]

ارع (هذه الفضيلة) فى سائر المملكة

وسوف تزدهر فضيلتك . [٣]

ارع (هذه الفضيلة) فى العالم ،[٤]

وسوف تشمل الجميع على السواء . [٥]

حقاً :[٦]

بنفسه يحكم المرء على نفوس الآخرين ؛[٧]

ببيته يحكم المرء على البيوت ؛

بموطنه يحكم المرء على المواطن ؛

---

(١) فى قريتك .

(٢) وسوف تعيش قريتك فى أمان .

(٣) وسوف تزدهر المملكة .

(٤) فى الإمبراطورية أو المملكة الكبرى .

(٥) وسوف تتسم الإمبراطورية .

(٦) من أجل هذا .

(٧) أى أن المرء يحكم على نفوس الآخرين من خلال نفسه ، وعلى الأسرة من خلال أسرته وهكذا فمعرفة جوهر الشىء وحقيقته (أو طاوه) هى السبيل الى الحكم عليه . =

ببلده يحكم المرء على البلاد ؛

بالمملكة يحكم المرء على مملكة الأرض .

ومن أين نعرف أن مملكة الأرض كذلك ؟

عن هذا الطريق .

= فكمال الفرد يبدأ من كمال نفسه ، وكمال الأسرة يبدأ من كمال الأفراد ، وكماله القرية يبدأ من كمال الأسر وهكذا .

أخلاق الطفل

كمال من يجمع الفضيلة فى نفسه[1]
أشبه بكمال طفل حديث الولادة .
النحل ، والعقارب ، والحيات لا تلدغه ؛[2]
الوحوش لا تعتدى عليه .
الطيور الجارحة لا تنقض عليه .[3]
عظامه لينة ، وأوتاره ضعيفة
ومع ذلك فقبضته قوية .

---

(١) مناعة الأشياء التى تكمن فيها الفضيلة (أو قوة الطريق) أشبه بمناعة طفل حديث الولادة .

(٢) الحشرات السامة .

(٣) لا تمزق لحمه أو لا تؤذه .

لم يعرف شيئاً بعد عن اتحاد الذكر والأنثى

ومع ذلك فإن أعضاءه تامة التكوين[١]

تلك هى ذروة طاقة البذور[٢]

يصيح طول اليوم

ومع ذلك لا يبح صوته :

تلك هى قمة الانسجام الطبيعى .

معرفة الانسجام معناها : أن تكون أبديا .

أن تكون أبدياً معناه : أن تكون متجليا .[٣]

أما أن تزيد[٤] من الحياة فمعناه : أن تجلب نذر الشر .

أن تنظم التنفس عن شعور واع معناه : أن تشتهى القوة .

(ذلك أن) الكائنات تهرم

حين تبلغ ذروتها .[٥]

هذا ما يدعونه : على خلاف الطريق .

وكل ما كان على خلاف الطريق فسوف ينتهى سريعا .[٦]

---

(١) ومع ذلك يظهر عضوه تام التكوين .

(٢) قوة الحياة .

(٣) أو أن يكشف عنك كما يعبر المتصوفة المسلمون .

(٤) أن تريد إصلاح الحياة ، أو أن تملأها إلى حافتها .

(٥) الكائن الذى يصل إلى ذروة قوته (نباته) يشيخ ويهرم .

(٦) سوف ينقضى ولما يزل فى شبابه .

- ٥٦ -

وراء الشرف والعار

الذى يعرف ، لا يتكلّم

الذى يتكلّم ، لا يعرف

يسد سكته

يغلق أبوابه

يفل حده

يفك عقدته

يخفف لمعانه

يجمع رماده .[١]

هذا ما يسمى بالوحدة الصوفية .[٢]

---

(١) اجعل رمادك ناعما . أو كما فى ترجمة لين يوتانج : هدئ إعصارك . والمقصود على أرجح الآراء هو التراب الذى يثيره المشى أو الركوب . والمعنى فى هـذه الحالة هو أن الحكيم (أو القديس) لا يثير إعصارا أى أنه يحيا حياته فى ظل السكينة .

(٢) وهى التى يسود فيها الإدراك الشامل الذى لا تؤثر عليه المدركات الجزئية عن طريق الحواس المختلفة .

من أجل ذلك فالحكيم :

لا يستطيع الحب أو الكره أن يلمسه

ولا النفع أو الضر أن يدركه ،

ولا الشرف أو العار أن ينال منه

لذلك فهو أكثر الناس حظا من التكريم فى المملكة .

- ٥٧ -

فن الحكم

الممالك لا تحكم إلا بالحق

الأسلحة لا تشرع إلا بالباطل

اكسب المملكة عن طريق عدم — الفعل

ومن أين لى أن أعلم أن الأمر كذلك ؟

عن هذا السبيل :

كلما زاد فى المملكة الحظر والتحريم ، ازداد الشعب فقرا .

كلما زاد عدد الأسلحة الحادة بين الناس

ازداد الاضطراب فى بيت الحاكم .

كلما ازداد الناس مكرا ودهاء

ازداد الإخلال بالنظام .

كلما زاد عدد القوانين والتعليمات ،

زاد عدد اللصوص وقطاع الطرق .

لذلك يتكلم الحكيم (فيقول) :

أنا لا أفعل شيئا ، والشعب يتحسن من تلقاء نفسه .

أنا أحب السكينة ، والشعب يهتدى بنفسه إلى النظام .

أنا لا أمارس تجارة ، والشعب يصبح من نفسه غنيا

أنا لا أشتهى شيئا

والشعب يعود من نفسه إلى الفطرة[1]

---

(١) إلى البساطة والبراءة الأولى التى تتمثل فى الطفل الحديث الولادة أو فى كتلة الخشب الخام التى لم تمسسها يد ولم يشكلها فعل . (راجع المقدمة .) .

عندما يكون الحاكم كسولا وضيق الحيلة ،

يكون الشعب سعيدا وقرير العين ؛[١]

عندما يكون الحاكم نشيطا وحازما ،

يكون الشعب بائسا وساخطا .[٢]

النعمة ، آه ! تعتمد على سوء الحظ ؛

سوء الحظ ، آه ! يقوم على النعمة .[٣]

من ذا الذى يعرف أين تقع حدود كليهما؟[٤]

حيث يكون المستقيم دائما إلى جانب المعوج

ويتجاور الخير مع الشر

---

(١) والشعب لا يلحقه فساد . (٢) فقيرا وهامدا .

(٣) النجاح يستند على سوء الحظ ، وسوء الحظ يعتمد (يتربص أمام) على النجاح . والملاحظ ، كما يقول المفسرون ، أن هذه المقطوعة تتهكم بحكمة صينية قديمة تقول إن الحظ السعيد يعتمد على الحظ السيء والعكس ، وأن الحكيم وحده هو الذى يعرف ذلك ، إذ كيف يستطيع الرجل العادى أن يبلغ حدود الحكمة ؟ . أما من يتبع الطريق (أو الطاو) فإن حدود حكمته تقع وراء عالم الأضداد .

(٤) ولكن على الرغم من أن القليلين يعرفون ذلك ، فإن هناك حدا لا يكون عنده ثمة خطأ ولا صواب .

لا شك أن الإنسانية قـد أبعدت فى

الضلال ؟[١]

من أجل هذا ، كان الحكيم

مربع (الأطراف)[٢] بغير أن يكون قاطعا ،

ذا زوايا[٣]، بغير أن يقطع .[٤]

مستقيما ، بغير أن يتمدد .[٥]

مشرقا ، بغير أن يظهر نوره .[٦]

---

(١) هذه القطعة فى غاية الغموض ، وقد اعتمدت فيها على ترجمة « والى » الإنجليزية . أما جنتر ديبون فيؤديها على هذا النحو : طالما لم يكن للحق ولا للباطل وجود ، فإن الحق ينقلب باطلا ، كما أن الخير لابد أن يرتد فيصير لعنة . إلا أن نظرة البشر ستظل أبدا فى وسط النهار عمياء .

(٢) أى محب للحق .

(٣) أى عفيف مستقيم .

(٤) يقر الحق بغير أن يجرح غيره .

(٥) مستقيما ، لا يعتدى على حقوق غيره .

(٦) مضيئا ، بغير أن يعشى العين نوره .

لأجل أن تحكم الناس ،

لأجل أن تخدم السماء ،

ما من شيء أفضل من التدبير .[١]

طوبى ! هذا التدبير معناه أن تقى نفسك .[٢]

أن تقى نفسك معناه أن تضاعف من الفضيلة[٣] المخزونة

وعندما يضاعف إنسان من الفضيلة المخزونة

لا يوجد شيء ، يعجزه أن يقهره

وحين لا يوجد شيء ، يعجزه أن يقهره

---

(١) أى أنك لن تستطيع أن تحكم الناس ولا أن تتعبد للسماء حتى تكون قد أمنت خزائنك ، وأودعت فيها من سنوات الشبع ما ينفعك فى سنوات الجوع . . والتخزين (أو التحديد كما فى بعض الترجمات) هنا رمز على ما يجب على الإنسان أن يتبعه من رياضات جسدية وروحية لكى يدعم رصيده من الطاقة الحيوية ، أو من التنفس كما يريد الطاويون .

(٢) التخزين معناه أن تستنفد بسرعة ، وفى ترجمة أخرى أن تتعلم الخضوع فى سن مبكرة .

(٣) أو القوة — وفى ترجمة أخرى : أن تقى نفسك معناه أن تكون مستعدا وقويا .

فإن أحداً لا يعرف حدوده .

ومن لم يعرف أحد حدوده

فهو قادر على أن يحكم البلاد . [1]

ولكن من يملك البلاد ويذهب إلى الأم[2]

فهو وحده الذى يمكنه أن يبقى إلى الأبد :

هذا [3] ما يسمونه : تعميق الجذور وتثبيت الجذع .

هذا هو طريق الحياة الأبدية

طريق الرؤيا الدائمة .

---

(١) أو يضع المملكة كلها فى قبضته .

(٢) أى يعود إلى مبدأ الأمومة أو إلى الطريق الأصيل .

(٣) يفسر المترجم الإنجليزى والى « هذا » بأنها تقديم الأضاحى الى الجدود أو الى السماء .

احكم البلد العظيم

كما تقلى الأسماك الصغيرة .[١]

من يحكم المملكة[٢] وفقاً للطريق

سيجد أن الأرواح (الشريرة) تفقد قوتها[٣].

الأرواح (الشريرة) لن تفقد قوتها فحسب

بل إنها لن تجرح أحداً من البشر .[٤]

لن تجرح أحداً من البشر فحسب

بل إن الحكيم كذلك لن يجرح أحداً من البشر[٥] .

حين لا ينال أحدهم صاحبه بسوء

فإن قواهما (فضيلتهما) ستلتقى على غايه واحدة[٦] .

---

(١) أى كلما قل الفعل كان ذلك أفضل .

(٢) العالم أو مملكة الأرض .

(٣) سيجد أن أرواح الشياطين لن تعلن عن نفسها .

(٤) بل إن روح الحكيم الطيبة لن تنال أحدا بسوء .

(٥) بل إن الحكيم نفسه سينجو من الشر .

(٦) فإن الفضيلة (الخلق) الأصلية ستستقيم من جديد .

- ٦١ -

البلد العظيم والبلد الصغير

البلد العظيم ينبغى أن يكون كالمنخفض الذى تسيل إليه الأنهار ،

ينبغى أن يكون كالحوض[١] الذى تلتقى فيه (جميع أشياء) مملكة الأرض

وأنوثة مملكة الأرض .[٢]

الأنوثة تغلب أبداً

بسكينتها[٣] الرجولة —

وهى فى سكينتها السفلى .[٤]

من أجل هذا :

إذا اتضع[٥] البلد العظيم

أمام البلد الصغير ،

---

(١) كنقطة التجمع التى يلتقى فيها كل ما تحت السماء .

(٢) الأنوثة فى العالم .

(٣) بهدوئها ووداعتها واستسلامها .

(٤) حرفيا : يصبح أسفل ، أى يتجه أبدا الى الموضوع المنخفض .

(٥) حرفيا : وضع نفسه تحت البلد الصغير .

كسب البلد الصغير . (١)

والبلد الصغير

يتضع (٢) أمام البلد العظيم

لذلك يكسب البلد العظيم

حقاً :

أحدهما (لا بدّ له أن) يخفض نفسه

لكى يكسب .

الآخر منخفض (بطبيعته)

وبذلك يكسب .

البلد العظيم لا يبتغى شيئاً

سوى أن ينظم الناس ويطعمهم . (٣)

البلد الصغير لا يبتغى شيئاً

سوى أن ينضم إلى غيره ويكون فى طاعته (٤) .

---

(١) كسب عطف البلد الصغير ، وفى ترجمة أخرى ابتلعه .

(٢) يخفض نفسه ، يجعل نفسه تحت البلد العظيم .

(٣) سوى أن يحمى غيره من البلاد . وفى الترجمة الإنجليزية : سوى عدد أكبر من السكان .

(٤) كل ما تحتاج إليه البلاد الصغيرة هو مكان صغير يستطيع أن يهاجر إليه العدد الزائد من سكانها وأن يجد فيه عملا . وفى ترجمة أخرى : أن ينضم الى غيره ويضع نفسه تحت حمايته .

مرحى !

لـكى ينال كلاهما

ما تبتغى نفسه ،

ينبغى على البلد العظيم أن يتضع ويخفض نفسه .[1]

---

(١) أن يضع نفسه « أسفل » .

- ٦٢ -

كنز الطيبين

الطريق مأوى الكائنات العشرة الآلاف :

كنز الطيبين ،

ملجأ الأشرار .

بالكلمات الجميلة

تستطيع أن تبتاع الكرامة ؛

لكنك لا تتفوق على غيرك

إلا بالفعل الحق . (١)

(وحتى الأشرار من الناس

لماذا ننبذهم ؟)

---

(١) يوتانج :
الكلمات الجميلة
تباع على قارعة الطريق
المسلك النبيل
يمكن أن يقدم هدية .
ويريد المؤلف بائعى الكلام الجميل وأصحاب السلوك النبيل أولئك الدجالين=

حقاً :

قد يرفع (يمجد الناس) ابن السماء

أو يعينون الوزراء الثلاثة العظام ،

ولو كانوا يحملون لوحات الزمرد فى أيديهم

وتتقدم (موكبهم) خيول أربعة :

خير من ذلك أن يجلسوا فى سكون

ويتابعوا السير على هذا الطريق .

القدماء كرموا هذا الطريق .

فماذا كان السبب ؟

ألم يقولوا :

من يبحث عنه ، يجده ؛

من يكن مذنبا ، ينجو (إذا سلكه) ؟

من أجل هذا كان مكرّماً

على سائر الأشياء فى المملكة .

=باسم المعرفة — وما من زمن يخلو منهم — وأشباه الحكماء الذين كانوا يتنقلون من عاصمة إلى عاصمة ، ومن قصر إلى قصر ليبيعوا حكمهم للملوك والحكام .

- ٦٣ -

الصعبُ والسهلُ

يفعل بغير فعل

يعمل بلا عمل[١]

يجد الشذى فى ما لا رائحة له

يجعل الصغير كبيراً والقليل كثيراً

يقابل الإساءة بالإحسان

يدبر العسير ، وهو لا يزال يسيراً

ينجز العظيم ، وهو لا يزال صغيراً

أصعب المشكلات [٢] فى العالم

ينبغى أن تحلّ ولما تزل سهلة [٢]

(١) افعل بغير فعل . أنتج بغير أن تتاجر . ذق ما لا مذاق له . خذ العظيم كما لو كان ضئيلا . قابل الموجدة بالفضيلة !

(٢) الأعمال . ومعنى الأبيات التالية أن على الإنسان أن يواجه المتاعب قبل أن يفوت الأوان ويفلت الأمر من يده ، وأن يقوم بالأعمال الجسام وهى ما تزال فى البداية .

أعظم الأعمال فى العالم

ينبغى أن تتم ولما تزل صغيرة

لذلك فالحكيم :

لا يفعل شيئاً عظيماً

وبذلك يحقق العظمة

مرحى !

من يتعجل يقول نعم ، [1] لا يكاد يجد أحداً يثق به ؛

من يأخذ أموراً كثيرة مأخذاً سهلا

يواجه مصاعب جمه ،

من أجل ذلك فالحكيم :

يشق على نعسه

فلا يجد مشقة إلى آخر عمره .

---

(١) من يتسرع يبذل الوعود ، غالبا ما يجد من العسير عليه أن يفى بها .

(٢) لذلك فالحكيم يعرف أيضاً كيف يجعل السهل صعبا ، وبذلك يتجنب كل الصعوبات !
— أو : لذلك فالحكيم ينظر إلى أمور كثيرة نظرته إلى أمور صعبة ، ولهذا السبب لا يقابل الصعوبات أبدا .

ومفتاح هذه المقطوعة فى قوله : عامل الإساءة بالإحسان ، أو قابل الموجدة بالفضيلة . فكل قوة الحكيم الطاوى تكمن فى فضيلته (تى) التى تجعله يواجه سخرية الناس بالتمسك بالطريق ، فى وداعة وصبر وهدوء . إنه يرى الكل الشامل وراء الجزئيات الظاهرة ، كما يرى الجزئيات فلا ينسى أنها جزء من الكل ، تبعا لما تقتضيه منه الظروف .

— ٦٤ —

البدء والنهاية

ما يخلد إلى السكون ، يسهل الاحتفاظ به؛
ما لم يتضح بعد ، يسهل التحكم فيه ؛ [(١)]
الهش تسهل إذابته ؛
الدقيق تسهل بعثرته .
دبّر الأشياء ، قبل أن تخرج إلى الوجود !
تحكّم فيها ، قبل أن تضطرب ! [(٢)]
الشجرة الشامخة
نمت من برعم صغير
البرج ذو الأطباق التسعة

---

(١) ما لم يعط إشارة بعد ، يسهل تدبيره .

(٢) امنع الفوضى ، قبل أن تعلن عن نفسها !

ارتفع من كومة تراب

رحلة عشرة آلاف ميل

تبدأ تحت قدمك .

من يفعل شيئاً ، يفسده ؛

من يتشبث بشيء ، يفقده . (۱)

من أجل ذلك فالحكيم :

لا يفعل ، ولذلك لا يفسد ،

لا يتشبث ، ولذلك لا يفقد .

أما الشعب فيفسد عمله دائماً

وهو على وشك التمام .

تنبه للنهاية كما تنبهت للبداية ،

ولن يخيب لك عمل أبدا !

لذلك فالحكيم :

يشتهى ألاّ تكون لديه شهوة ؛ (۲)

---

(۱) يفلت منه .

(۲) لايريد إلا الأشياء التى لاتراد. هكذا فى الترجمة الإنجليزية ، وواضح أن الترجمة الأخرى أقرب إلى السياق .

لا يقدّر الأشياء التى يصعب الحصول عليها [1] ؛

يتعلّم ، ألا يتعلّم [2]

ينتبه إلى مالم تلتفت إليه العامة [3]

بذلك يعيد الـكائنات العشرة الآلاف إلى طبيعتها [4]

لـكنه لا يجسر على الفعل .

---

(١) لا يخزن أشياء يصعب الحصول عليها .

(٢) فى الترجمة الإنجليزية : بذلك يعلم ما لا يعلم . وفى ترجمة لين يوتانج : يتعلم ما لا يتعـلم والترجمة التى اخترناها أقرب إلى مذهب الحـكيم الطـاوى فى تجنب التعلم الذى يزيد من الفطنة والمهارة ولـكنه يجنى على الحكمة والوداعة . (انظر المقدمة .)

(٣) يعيد كل النـاس إلى الأشيـاء التى خلفوها وراءهم . أو : يعيد مـا صنعته العامة .

(٤) أى يعينهـا على أن تعود إلى طبيعتها الحقة أو إلى ما هيتهـا فى ذاتهـا التى تخالف ما هى عليه فى علاقتها بغيرها من الكائنات .

- ٦٥ -

التجانس العظيم

القدماء ، الذين عرفوا كيف يهتدون بالطريق (بالتاو)

لم يكن هدفهم تنوير الشعب

بل إبقاؤه جاهلا .

فكلما زاد حظ الشعب من العلم والفطنة

كان عسيرا على الحكم .

الذى يريد أن يحكم بلدا بالعلم

لص يسرق بلده [١]

الذى لا يحاول أن يحكم بلدا بالعلم

هو نعمة على الشعب .

الذى يعرف هذين المبدأين ،

يعرف المعيار الصحيح

---

(١) هو من لصوص الشعب .

ومعرفة الميعار الصحيح

هى الفضيلة الصوفية .

عندما تــكون الفضيلة الصوفية نافذة وعميقة

بحيث ترد الأشياء إلى منبعها

عندئذ،وعندئذ فحسب،ينشأ التجانس العظيم.

- ٦٦ -

ملوك الوديان

ما الذى يمكّن النهر والبحر

من أن يكونا ملكين على الوديان المائة ؟

إنهما يحسنان الانخفاض

من أجل هذا يستطيعان

أن يكونا ملكين على الوديان المائة .

لذلك : فمن أراد أن يعلوفوق الشعب

خفض له نفسه فى كلمته .[1]

من أراد أن يتقدم على الشعب

وضع نفسه فى المؤخرة !

لذلك فإن الحكيم :

يسكن فى القمة

---

(١) وجب عليه أن يتكلم معه وكأنه أدنى منه .

بغير أن يرزح فوق صدر الشعب ،

ويقود ،

بغير أن يضر بالشعب .

من أجل هذا يسعد كل شيء تحت السماء

أن يكون هو الذى يدفعه (إلى الأمام)

(ولا يتعب منه)

أو يسأم من قيادته .

لأنه لا يسعى إلى شيء

لا يستطيع أحد فى المملكة

أن يسعى ضده بشيء [1] .

---

(١) ديبون : لأنه لا يتنازع
لا يستطيع أحد فى المملكة
أن يتنازع معه .

- ٦٧ -

الكنوز الثلاثة

كل إنسان فى المملكة يقول : طريقى هو الطريق العظيم[1]

لأنه لا يشبه الطريق المألوف .

مرحى ! لأنه عظيم

لذلك فهو لا يشبه الطريق المألوف .

ولو أنه كان مألوفاً

لفسد من قديم الزمان .

مرحى ! أنا أملك كنوزا ثلاثة ، [2]

---

(١) فى ترجمة والى :

كل إنسان تحت السماء يقول :

طريقنا أشبه بالجنون .

ولكن كونه عظيما

هو الذى يجعله أشبه بالجنون .

(٢) هى القواعد الثلاث التى تلخص تعاليم لاوتسى السياسية والعملية ، وهى :
١ — الامتناع عن الحرب العدوانية وإلغاء حكم الإعدام ، ٢ — البساطة المطلقة فى الحياة ، ٣ — رفض السلطة الفعالة والبعد عن كل فعل من شأنه أن يؤدى إلى أفعال أخرى تولد الأحقاد وتزرع السخط وتدفع على التنازع والتقاتل .

أحافظ عليها وأحميها .

الكنز الأول اسمه : الرحمة ؛

الكنز الثانى اسمه : الاعتدال ؛

والكنز الثالث هو . ألاتتقدم أو تصدر المملكة .

رحيم —

من أجل هذا وحده أستطيع أن أكون شجاعاً ؛

معتدل —

من أجل هذا وحده أستطيع أن أكون كريماً ؛

والذى يرفض أن يتصدر المملكة

هو القادر حقاً على أن يكون سيد الوزراء[1]

أما اليوم فالناس شجعان

على حساب الرحمه ؛

كرام

على حساب الاعتدال ؛

والذى يتقدم

على حساب المتخلفين —

---

(١) ديبون : وإذ كنت أرفض أن يكون لى السبق فى المملكة

فإننى لذلك أستطيع أن أكون مدبراً « للأدوات »

وتفسر « الأدوات » عادة على أنها طبقة الموظفين الذين يقومون بتيسر الأمور البسيطة فى الدولة .

ينتهي إلى الموت !

مرحى

من يكافح بالرحمة ، ينتصر ؛

من يحمى نفسه بها ، يعش فى أمان .

من تريد السماء له النجاة ،

بالرحمة تحميه . (1)

---

(1) السماء تسلح بالرحمة من لا تريد أن تراه محطما .

- ٦٨ -

أشجع الفرسان

أشجع الفرسان لا يتنازع ،

أقوى المحاربين لا يغضب ؛

من يقهر الأعداء لا يتعارك

من يحسن استخدام الناس يضع نفسه فى خدمتهم .

هذا مايسمونه : فضيلة البعد عن النزاع ؛

هذا ما يسمونه : القدرة على استخدام الناس؛

هذا ما يسمونه : سر الزواج مع السماء

هناك كلمة تقال من قديم الزمان عند استخدام

السلاح : (١)

« أنا لا أجرؤ على أن أجعل من نفسى

المضيف

بل أجعل من نفسى ضيفاً ؛ (٢)

أنا لا أجرؤ على أن أتقدم مسافة إصبع

بل أتراجع إلى الوراء بعرض قدم . »

هذا ما يقال له :

أن تسبق دون سبق ، (٣)

أن تثنى أكمامك دون ذراع ،

أن تقبض يدك بغير أن تمسك بسلاح، (٤)

---

(١) خبراء الحروب يقولون من قديم الزمان .
(٢) أنا لا أجرؤ على البدء بالهجوم ، بل أوثر أن أكون المهاجم .
(٣) أن تزحف بغير أن تتقدم .
(٤) أن تتسلح دون سلاح .

أن تهاجم بغير أن يكون لك عدو .
مامن شر أعظم من أن تكون بغير عدو.[1]
بغير عدو أستطيع أن أفقد كنزى . [2]

حقاً :

عندما يشرع اثنان السلاح فى وجه بعضهما ،
فإن من يندب حظه منهما هو المنتصر . [3]

---

(١) أعظم النكبات أن تهاجم فلا تجد عدوا .
أو : ما من شر أعظم من أن تقدر العدو أقل مما يستحق .

(٢) تقدير العدو بأقل مما يستحق يمكن أن يؤدى إلى ضياع كنزى .
والكنز هنا تعبير جميل عن الرحمة أو الشفقة الإنسانية .

(٣) عندما يلتقى جيشان متساويان فى القوة
فإن الذى يخسر الحرب منهما هو المنتصر .

– ٧٠ –

هم لا يعرفوننى

كلماتى

سهلة جدا على الفهم ،

سهلة جدا على التنفيذ :

غير أنه ما من أحد فى المملكة كلها

يقدر على فهمها ،

ما من أحد فى المملكة كلها

يقدر على تنفيذها .

كلمتى لها جد (سلف) ،

عملى له سيد . [1]

لأنه لا أحد يعرفهما

---

(١) أن لا يكون للمرء سيد ولا أسلاف معناه عند المؤلف أن يكون متوحشا — ومعنى أن يكون للكلمة سلف وللعمل سيد هو أن يندرجا فى نظام فكرى شامل .

فلا أحد يفهمنى ؛

النادرون هم الذين يفهموننى ؛

والذين يتبعوننى ، مرموقون .

لذلك فإن الحكيم :

يحمل على جسده ثوباً من الشعر

أما فى قلبه فيحمل الجوهرة [1] .

(١) بمعنى أن الحكيم لا يطير فؤاده خوفا من الفزع والرعب فى أوقات الفوضى والاضطراب . وقد كان من عادة الأغنياء فى الصين أن يلبسوا ثياب الفلاحين ويخفوا كنوزهم تحت ملابسهم . والمقصود بلبس ثوب من الشعر أن يحتفظ الإنسان بمعرفته لنفسه .

– ٧١ –

المَـرض العقـلى

الذى يعرف ، أنه لا يعرف

هو أرفع الناس شأناً .

الذى يحسب أنه يعرف ، وهو لا يعرف [١]

مريض بعقله .

سمّ المرض مرضا

بذلك وحده لا تكون مريضاً ،

الحـكيم ليس مريضاً

إنه يسمى المرض مرضاً

من أجل هذا فليس مريضاً

الذى لا يعرف ؛ يعرف على الحقيقة

---

(١) ديبون : الذى لا يعرف أنه يعرف
مريض بعقله .

والذى يعرف ، لا يعرف على الحقيقة .

هل تعرفون ، أن ما تعدونه معرفة

ليس معرفة فى الحقيقة ؟[1]

---

(١) المقطوعة الأخيرة زائدة فى ترجمة لين ليوتانج . قارن فى ذلك حكم كونفوشيوس :
« هل أقول لك يابنى ما هى المعرفة ؟ هى أن تسمى المعرفة معرفة والجهل جهلا . »

حين لا يخشى الشعب قوتك
تكون قد بلغت أقصى قوتك. [١]
لا تضيق مساكنهم ! [٢]
لا ترهق عيشهم !
مادمت لا تتعبهم
فلن يتعبوا منك . [٣]
لذلك فإن الحكيم
يعرف نفسه

---

(١) تختلف الترجمات اختلافاً شديداحول هذين البيتين . فهناك من يقول : لا تكترث بأن الشعب لا يخشى سلطتك ، فسوف تتحكم فيه في نهاية الأمر سلطة أقوى منها — وهناك ترجمة أخرى تقول : حين لا يخشى الشعب من القوة ، تنزل عليه قوة أعظم منها (يعنى بذلك قوة السماء .)
(٢) أى لا تضعهم فى السجون .
(٣) أى لا ترهقهم فى رزقهم ، ويقصد بذلك فرض الضرائب الثقيلة وما إليها .
(٤) لأنك لا تضيق بهم فلن يضيقوا بك أو لأنك لا ترهقهم فلن ينصرفوا عنك .
(٥) أو لا يرى نفسه . والمعنى أن الحكيم يعرف قوته ، ولكن لا يعرضها على الناس .

ولكن لا يعرض نفسه ؛

يدخر نفسه

ولكن لا يكرم نفسه .[1]

حقاً :

ذلك مايدعه ،

هذا ما يأخذه .[2]

---

(١) أو يعرف قدره ، ولكن لا يرفع من قدره .

(٢) إنه يدع ذلك ويأخذ بهذا ، أودع ذلك وخذ بهذا ، والمراد أنه يتجنب البطش ، ويؤثر الوداعة .

- ٧٣ -

عن العقاب

الشجاعة فى الإقدام معناها الموت ؛

الشجاعة فى عدم الإقدام معناها الحياة .[١]

من هذين الأمرين

يجلب أحدهما النفع

والآخر الضرر .

من ذا الذى يعرف السبب

الذى من أجله تكره السماء ما تكره ؟[٢]

---

(١) والى : من تكن شجاعته فى الإقدام ، يقتل ،
من تكن شجاعته فى عدم الإقدام ، يوهب الحياة .
أو كما فى ترجمة يوتانج .
من وجد فى نفسه الشجاعة ليتحداك ، فاقتله
من وجد فى نفسه الشجاعة ألا يتحداك ، فدعه يعيش .

(٢) لكن السماء تكره ما تكره
ولا أحد يعلم السبب —
وتفسير هذا أن السماء (أو الطريق) تكره إراقة الدماء ، لأنها تخالف روح الطبيعة ، والذين يتجاهلون إرادة السماء ينتهون بالوقوع فى شباك القدر ، التى لا يفلت منها أحد.

(لذلك فإن الحكيم أيضاً

يرى أن هذه مسألة صعبة .)

طريق السماء

لا يتنازع [1]

ومع ذلك يحرز النصر ؛

لا يتكلم ،

ومع ذلك يحسن الجواب ؛

لا ينادى على أحد ،

ومع ذلك يلبى الجميع من تلقاء أنفسهم؟

وديع هو ، [2]

ومع ذلك فهو يحسن التدبير

شبكة السماء واسعة ؛

ثقوبها كبيرة ،

ومع ذلك لا يفلت منها شيء .

---

(١) لا يسعى الى شيء .

(٢) السماء أشبه بمن يتكلم قليلا
ومع ذلك فهو يحسن التدبير . (والى)

إذا كان الشعب لا يخاف من الموت ،

فلماذا إذن نبث فيه الرعب من الموت ؟ (١)

وحتى لو سلمنا

بأن الشعب يخاف حقيقة من الموت(٢)

(ولا ينظر إليه على أنه شيء يحدث كل يوم) ؛ (٣)

وأن فى استطاعتنا أن نقبض على المخلين بالنظام

ونأمر بقتلهم

فمن منا يجسر على أن يفعل ذلك ؟ (٤)

دائماً ما يكون هناك جلاد ، يقوم بهذا العمل.

---

(١) نهدده بالموت .

(٢) وحتى لو سلمنا بأن فى استطاعتنا أن نجعل الشعب يخاف دائماً من الموت .

(٣) إضافة من الترجمة الإنجليزية .

(٤) وأنهم (أى أفراد الشعب) قد اقترفوا ما يخل بالنظام ، فمن منا يجرؤ على القبض عليهم وقتلهم ؟

وأن تجلد بدلا من الجلاّد

معناه أن تنجّر بدلا من النجّار .

ومن ينجّر بدلا من النجار

يندر ألا يجرح يده .

— ٧٥ —

لماذا يجوع الشعب ؟

إذا كان الشعب يجوع ،

فلأن الضرائب التى يلتهمها حكامه ،

تزيد على طاقته .

من أجل هذا وحده يجوع .

إن كان من العسير أن يحكم الشعب ،

فلأن حكامه (يتدخلون) بالفعل .

من أجل هذا وحده يكون من العسير أن يحكم .

إن كان الشعب لا يحترم الموت احتراماً كافياً ،

فلأنه ينساق وراء الحياة .(١)

من أجل هذا وحده لا يحترم الموت احتراماً كافياً .

---

(١) والى : فلأن الذين يسيطرون عليه مستغرقون فى الحياة .

حقاً :

أن لا يكون لديك
ما يجعل الحياة جديرة بالتقدير ،
خير لك من أن تقدر الحياة .[1]

---

(١) والى : لأن قلوبهم قليلة التعلق بالحياة
فهم أعلى من أولئك الذين يغالون فى قيمتها .

- ٧٦ -

اللّين والقوة

عند ما يولد الإنسان

يكون ليناً وضعيفاً ؛

عندما يموت ،

يكون متصلباً وقوياً .

عندما تنمو الكائنات العشرة الآلاف

وترتفع الأعشاب والأشجار

تكون لينة وغنية بالعصارة ؛

ولكنها عندما تموت ،

تكون ناشفة وجافة .[١]

حقاً :

المتصلب القوى رفيق الموت ؛

---

(١) يقول الشراح إن هناك كلمة صينية واحدة (شونج) تفيد الولادة والنمو والحياة .

اللين الضعيف رفيق الحياة .

من أجل هذا :

حين تـكون الأسلحة قوية، لاتحرز النصر ،

وحين تـكون الأشجار قوية ، تقتطع. [1]

القوى العظيم يهبط إلى المحل الأسفل ،

اللين الضعيف يرتفع إلى المحل الأرفع .

---

(١) من أجل هذا :
فالسلاح الشديد الصلابة يكسر ،
والشجرة الشديدة الصلابة تقطع .

- ٧٧ -

بشد القوس

طريق السماء ، ماأشبهه بشد القوس !

المرتفع يخفض ؛

المنخفض يرفع ؛

الوفير يقلّ ؛

الناقص يرجح فى الميزان .[1]

كذلك طريق السماء :

يقلل الوفير ،

ويرجح النـاقص .

غير أن طريق البشر مختلف :

---

(١) والى : عندما يثنى القوس يميل طرفه الأعلى إلى أسفل
كما يرتفع طرفه الأدنى إلى أعلى .
كذلك السماء تأخذ ممن يملكون الكثير
وتعطى من لا يجدون الكفاف .

إنهم يأخذون ممن لا يملكون الكفاف ،

لكى يعطوه لمن يملكون مايزيد على حاجتهم.

من يقدر على أن تقديم

ما يزيد على حاجته للمملكة [1] ؟

إنه ذلك الذى يملك الطريق .

لذلك فالحكيم :

يفعل ، ولكن لا يعوّل على فعله ،

وإذا أتم الفعل ، لم يتلبث عنده ،

ذلك لأنه لا يحب أن يظهر تفوقه .

(١) أو للعالم كله .

- ٧٨ -

لا شيء أرق من الماء

ما من شيء على الأرض ألين ولا أضعف

من المـــــاء

ومع ذلك فلا يتفوق عليه شيء فى التغلّب على الصلب والقوىّ .

عدم الوجود يجعل ذلك سهلا عليه .

الضعيف يهزم القوى

اللّين يهزلم الصلب

لا أحد على الأرض يجهـــــل هذا

لا أحد على الأرض يقوى على أن يتبعه .(١)

من أجل هذا يقول الحكيم :

« من يتحمل قذارة العـــالم

---

(١) كل الناس يعرف هذا
كل الناس تجهل كيف تنتفع به . (والى)

فهو سيد المملكة ، [1]

من يحمل ذنوب العالم .

فهو ملك العالم »

الكلمات المستقيمة تبدو كأنها معوّجة . [2]

(١) إشارة إلى عادة كانت شائعة في الصين القديمة فقد كان صاحب الأرض الجديد يحمل في يده كمية من الطين رمزا على أن الأرض قد أصبحت ملكه .

(٢) أي تبدو وكأنها مفارقات عجيبة .

- ٧٩ -

معاهدات السلام

عندما (نحاول أن) نهدّئ من السخط العظيم

يبقى من السخط ما ليس بقليل .[١]

كيف نستطيع على الرغم من ذلك

أن نصلح علاقاتنا بالآخرين ؟[٢]

من أجل هذا يحتفظ الحكيم

بالجانب الأيسر من وثيقة الدين ،[٣]

ولكن لا يلحّ فى طلب شىء من الناس .

الفاضـــل يلتزم بتسجيل الدين ،

---

(١) تهدئة السخط (الحقد) الأساسى على نحو لاينتج عنه إلا سخط جديد،أمر لا يمكن أن يقال عنه إن التوفيق حليفه .

(٢) كيف السبيل إلى اعتبار ذلك أمرا مرضيا ؟

(٣) من أجل هذا يتصرف الحكيم كما لو كان صاحب وثيقة الدين التى تحملها اليد اليسرى . وقد كان المتبع عند الاتفاق على صفقة تجارية أن تستخدم قطعتان من الخشب تدخل إحداهما فى الأخرى ويحتفظ الدائن بالقطعة اليسرى منهما .

المجرّد عن الفضيلة يلتزم بالمطالبة به . [1]

طريق السماء مجرّد عن الهوى

أبداً يعطى من يقف فى جانب الخير .

---

(٤) الفاضل محسن كبير ، والمجرد عن الفضيلة مطالب كبير .

(٥) يعطى دائما من يثبت أنه خير .

— ٨٠ —

بلد صغير

بلد صغير ! شعب قليل العدد ! [١]

ولو كانت هناك أدوات

(مفعولها) بالعشرات والمئات — [٢]

اجعل الشعب لا يستعملها !

اجعل الشعب يأخذ الموت مأخذاً جاداً ، [٣]

ولا يهاجر إلى بلاد بعيدة !

حقاً إن السفينة هناك والعربة هنـــاك

ولـكن مامن هدف (يدعو) إلى ركوبها ، [٤]

---

(١) إذ إن البلد الـكبير العديد السكان كان دائما مطمع الأمراء والملوك .

(٢) لين يوتانج : حيث يزيد العرض من البضائع على الطلب بمقدار عشرة أضعاف أو مائة ضعف .

(٣) والى : اجعل الشعب يقدم حيـاته دفاعا عن بيته ولا يهـاجر إلى بلاد بعيدة .

(٤) ولـكن لا تكن ممن يركبونها .

حقاً إن الدروع هناك والأسلحة هناك ،
ولـكن ما من سبب (يدعو) إلى حملها .[1]
اجعل النـاس كذلك يرجعون
إلى الحبل المعقود [2] ويستخدمونه .
اجعل أطعمتهم شهية ،
ثيابهم جميلة ،
مساكنهم مطمئنة ،
حياتهم فرحة !
البلد المجاور تراه العين من بعيد ، [3]
الديكة والـكلاب تسمعها الآذن ،
ولـكن الشعب يهرم ، ويموت
ولم يقدر له أن يعرف طريق الجيران .

---

(١) لا تخلق المناسبة التي تدعو إلى استعمالها .
(٢) يظن أن الحبل المعقود كان مبدأ الـكتابة الصينية .
(٣) أي اجعل البلد المجاور بحيث تراه العين
وتسمع الديكة التي تصيح فيها والـكلاب التي تنبح .

- ٨١ -

طريق السماء

الكلمات الحقة ليست جميلة

الكلمات الجميلة ليست حقة .

الخيّر لا يجادل

المجادل ليس خيراً .[١]

الحكيم فى غنى عن الكثير من المعرفة

الذى يعرف كثيراً ليس حكيماً .[٢]

الحكيم لا يخزن لنفسه .

إنه بقدر ما يعيش لغيره

يزددا ثراء ؛

بقدر ما يعطى الناس

---

(١) أو الخير لا يثبت شيئاً بالبرهان .
الذى يثبت بالبرهان ليس خيراً .

(٢) العلم الكثير معناه الحكمة القليلة .

يزداد نصيبه .

طريق السماء :

ينفع ، بغير أن يضر [1]

طريق الحكيم :

يعمل ، بغير أن يتنازع [2]

---

(١) يحد بغير أن يقطع .

(٢) يعمل بغير أن يسعى لشيء . والملاحظ فى الأبيات الأولى من هذه القصيدة أن كلمة حقة تفيد هنا معنى الصدق أكثر مما تدل على « الحقيقة » بالمعنى الذى نفهمه منها اليوم جريا على التراث الفلسفى الغربى بمعنى الصواب أو انطباق الفكر على الواقع . ذلك أن غاية الحكيم الصينى هى المسلك الحق المستقيم ، كما أن الهدف الأول من الأخلاق الصينية هو الصدق والثقة بين الناس بعضهم البعض وبينهم وبين الحاكم . وهنا يقترب التاويون من الكونفوشيين . فيحكى عن كونفشيوس أن تلميذه تسى جونج سأله ذات مرة عن تأسيس الحكومة الرشيدة ، فرد عليه المعلم قائلا : الغذاء الكافى ، والسلاح الكافى وثقة الشعب بك . قال تسى جونج : وإذا لم تتوافر كلها فأى الثلاثة ينبغى على الإنسان أن يتخلى عنه ؟ قال المعلم : السلاح . فسأله تسى جونج . « وإذا لم تتوافر الاثنان الباقيان فى وقت واحد ، فأيهما ينبغى علينا أن نتخلى عنه ؟ » فأجاب المعلم : الغذاء . منذ القدم كتب علينا أن نموت . ولكن إذا لم يكن عند الشعب ما يثق به ، فإن الدولة لا تقوم لها قائمة .

مصادر الكتاب

(1) Lao-Tse — Tao - Tê - Kirg. Das heilige Buch vom Weg und von der Tugend. Ubersetzung, Einleitung und Anmerkungen von Gunther Debon. Stuttgart, Reklam, 1961, 142 S.

(2) Arthur Waley — The way and its power. A study of the Tao - Tê - King and its place in Chinese thought. London, George Allen & Unwin, 1949, 262 P.

(3) Lao Tse — Herausgegeben von Lin Yutang. Frankfurt am Main, Fischer Bucherci 1957. 215. S.

بول ماسون — أورسيل ؛ الفلسفة فى الشرق . ترجمة محمد يوسف موسى
القاهرة ، دار المعارف — ١٩٤٥

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عماد الدين : القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦





مطابع سجل العرب

شارع بستان الدكة - ٩ عماد الدين : القاهرة

تليفون - ٩٣٢٧٠٦

١٩٦٧

